شرح النظم

المسمى

بسلم الانشاء

تأليف

العلامة الشيخ

محمد مفتاح قريو

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

شرح النظم
المسمى
بسلم الانشاء



تأليف

العلامة الشيخ
محمد مفتاح قريو



التعريف بمؤلف سلم الإنشاء بإيجاز

اسمه:

هو محمد بن مفتاح بن محمد قريو، (بكسر القاف والراء المشدَّدة).

تاريخ ومكان ميلاده:

ولد بالتاريخ الهجري قبل فجر يوم الجمعة 26 جمادي الأول 1332 هـ. الموافق لأواسط مايو 1914م، في مصراتة بالغيران الغربية.

أخذه للقرآن والعلم:

قرأ القرآن على جده من جهة الأم الفقيه منصور بن حامد، وعلى والده الشيخ مفتاح قريو ـ قدس سره ـ، وعلى صديق والده الفقيه عبد الواحد الأصيفر، في جامع قريتهم.

ثم انتقل لقراءة العلم فأخذ مبادىء العلوم اللغوية، والشرعية، والعقلية، والقرآنية، على جماعة: منهم والده الشيخ مفتاح قريو ـ قدس سره ـ والشيخ محمود الزواوي، والشيخ رمضان أبي تركية،

والشيخ محمد بن منصور الزروقي، وعن أستاذه الشيخ رحومة الساري.

ثم انتقل الأستاذ الساري إلى المعهد الأسمري لتعليم العلم هناك فتبعه المؤلف وأخذ عنه، وعن الشيخ منصور أبي زبيدة، وعن الشيخ أحمد بن سعيد، وعن الشيخ أحمد المبسوط، وعن الشيخ أحمد بن حامد.

وأكثر أخذه كان على الأستاذ رحومة الساري، فلازم حضور دروسه مدة عشر سنين، وأخذ عنه في ثمانية عشر فنًّا، فهو أستاذه الأكبر.

اشتغاله بخطة التدريس:

ثم عين مدرساً بالمعهد الزروقي، فاشتغل فيه بخدمة العلم والتعليم مدة عشرين عاماً.

وأَلَّفَ في تلك المدة خمس تأليفات: لب العقائد، وميدان الفوائد على لب العقائد، وكشكول الضوابط في جمع الضوابط، والدور الأول من الجهاد الليبي في الطليان، والقصائد العشرة في جهاد الليبيين ومقاومتهم للطليان الفاشستيين.

اشتراكه في أخذ الشهادة العالمية:

ثم اشترك في امتحان الشهادة العالمية وتحصل بذلك الاشتراك على الشهادة العالمية.

وقرأ هناك على الشيخ عثمان المريزيقي المصري في أصول الفقه مرة ثانية - بعد قراءته على غيره - فأخذ عنه في مدة وجيزة تضاهي قراءة حولين كاملين في الفن المذكور، بإخبار المؤلف نفسه.

رجوع المؤلف إلى التعليم:

ثم رجع إلى خدمة العلم والتعليم بعد أخذه الشهادة العالمية، فألف اثنى عشر بحثاً في تفسير آيات قرآنية، وفتاوي شرعية، وألف تراجم أعيان العلماء من أبناء مصراتة القدماء، وتراجم الصحابة المشهورين في الشمال الأفريقي، وترجمة أبي مريم السكوتي - إمام جامع المرسي -، وترجمة الشيخ عبد السلام بن عبد الغالب المصراتي صاحب كتاب الوجيز، وترجمة الشيخ محمد بن غلبون مؤرخ ليبيا بكتاب التذكار. وكتبا خمسة أُخر.

منها: ابتداء الحركة العلمية في البلاد المصراتية، والوقائع الحربية التي خاضها المصراتيون في مقاومة الجنود الإيطاليين، وترتيب المعارك التي خاضها المصراتيون بدون مشارك، وتعليق على الشرح المسمى بمنازل الفردوس لابن غلبون على نظم السوسي المراكشي المسمى بالمقنع في فن الفلك على طريقة أبي مُقْرِع، وتسبيع قصيدة جبل ديسان، التي خمّسها الشيخ بادي عثمان.

ولما بلغ المؤلف سبعين سنة اتضح له فساد التقليد، وفساد فتح باب الاجتهاد، فسلك طريق الإصلاح، وتقاعد عن التعليم، وشرع في جمع ماألفه، وزاد عليه أنظاماً كثيرة، منها: نظمه لجواهر الفقه المالكي، وهو نظم طويل يحتوي على ثلاثة آلاف بيت، ومنها أيضاً جواهر الضوابط، وجواهر القصائد، وجواهر الرد على التنابلة القاصرين في الفروع الفقهية ويتفوهون بالفتوى من غير معرفة للقواعد الشرعية، ومنها أيضاً الرد على المارقين، وقواعد نفيسة في علم الفلك وأهمها قاعدة مدخل العام العربي، ومنها أيضاً اختصار لب العقائد، ونظم الفرق الكلامية في الأمة الإسلامية، ونظم تعاريف

الإسلامي، ونظم ملوك بني العباس في بغداد، ونـظم المجاز المفـرد في البلاغة، ونظم سلم الإنشاء، ونظم أسباب التأليف، ونظم تـرجمة المؤلف، ومنهـا خصائص الأمـة الإسلاميـة التي اشتهـرت في القـرآن والأحـاديث النبـويـة، ومنهـا أن المشقـة تقتضي التخفيف، ودليله حديث: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

وغيـر ذلك من الأبحـاث والتـآليف النفيسـة التي لا تـوجـد في الكتب المألوفة كما لا يخفى.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

يقول أفقر العباد إلى الله، وأغناهم به عمن سواه، محمد مفتاح قرِّيو المصراتي ـ عفا الله عنه فيما مضى، وأصلح شأنه فيما يأتي ـ لمَّا ألفتُ نظمي المسمَّى بِسُلَّم الإنشاء، لإعانة الطلاب، وجمعت فيه من أصول الإنشاء، وشروطه، ومحاسنه، وعيوبه، وفنونه، ما لا يوجد مجتمعاً في كتاب، أردت أن أشرحه شرحاً يحل ألفاظه، ويبين معناه، ويشتمل على ذكر العبارات التي منها نظمناه، ليتضح لطلاب الإنشاء ما احتوى عليه من القواعد النفيسة، التي لا توجد في غيره مجتمعة، وليعلموا أن من قرأه يكون على بصيرة في فنون الإنشاء السبعة، راجياً من الله الإعانة على إتمامه والتوفيق، والهداية إلى سلوك أقوم طريق.

وقد افتتحت النظم بالثناء على الله تعالى، فقلت:

نَحْمَدُ رَبَّنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا
وَلِلْعُلُومِ بِالْحِجَا أَهَّلَنَا
وَجَعَلَ اللِّسَانَ عُنْوَاناً عَلَى
مَافِي الْفُؤَادِ مِنْ كَلَامٍ حَصَلَا
وَخَصَّنَا بِبَعْثِ خَيْرِ رُسْلِهِ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَآلِهِ

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

يقول أفقر العباد إلى الله، وأغناهم به عمن سواه، محمد مفتاح قرِّيو المصراتي ـ عفا الله عنه فيما مضى، وأصلح شأنه فيما يأتي ـ لَمَّا ألفتُ نظمي المسمَّى بسُلَّم الإنشاء، لإعانة الطلاب، وجمعت فيه من أصول الإنشاء، وشروطه، ومحاسنه، وعيوبه، وفنونه، ما لا يوجد مجتمعاً في كتاب، أردت أن أشرحه شرحاً يحل ألفاظه، ويبين معناه، ويشتمل على ذكر العبارات التي منها نظمناه، ليتضح لطلاب الإنشاء ما احتوى عليه من القواعد النفيسة، التي لا توجد في غيره مجتمعة، وليعلموا أن من قرأه بكون على بصيرة في فنون الإنشاء السبعة، راجياً من الله الإعانة على إتمامه والتوفيق، والهداية إلى سلوك أقوم طريق.

وقد افتتحت النظم بالثناء على الله تعالى، فقلت:

نَحْمَدُ رَبَّنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا
وَلِلْعُلُومِ بِالحِجَا أَهَّلَنَا
وَجَعَلَ اللِّسَانَ عُنْوَاناً عَلَى
مَافِي الْفُؤَادِ مِنْ كَلَامٍ حَصَلَا
وَخَصَّنَا بِبَعْثِ خَيْرِ رُسْلِهِ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَآلِهِ

الحمد لغة: هو الثناء على الذات بجميل الصفات؛ لأجل اتصافها بجميل اختياري حقيقة أو حكماً.

فالأختياري حقيقة: كحمدنا لله تعالى على اتصافه بالتفضل والإحسان، والعفو والغفران، وما أشبه ذلك من صفات الأفعال؛ لأن المولى هو الفاعل المختار لجميع الأفعال.

والاختياري حكماً: كحمدنا لله تعالى على اتصافه بالقدرة والإرادة والعلم والحياة وما أشبه ذلك من صفات الذات؛ لأن المولى يؤثر بها في أفعاله الاختيارية، وكل ما به التأثير في الأفعال الاختيارية يسمى اختيارياً حكماً، هكذا نصوا.

والمعنى (نحمد) أي نذكر بالثناء الجميل (ربنا) أي مولانا عز وجل (الذي) أنعم علينا بهذه النعم الأربعة التي هي من أجل النعم.

الأولى أنه (أنشأنا) أي خلقنا وأوجدنا، بمعنى أنه أخرجنا من حيز العدم إلى حيز الوجود.

(و) الثانية أنه (للعلوم) أي لقبول العلوم (بالحجا) أي بسبب العقل. (أهلنا) بتشديد الهاء أي صيرنا أهلاً لقبول العلم بسبب العقل.

(و) الثالثة أنه (جعل) أي صيّر (اللسان) أي لساننا (عنواناً) أي دليلاً؛ لأن عنوان الشيء هو ما يجعل على ظاهره ليكون دليلاً على ما في باطنه (على ما في الفؤاد) أي القلب (من كلام حصلا) بيان لما الموصولة.

(و) الرابعة أنه (خصّنا) أي جعلنا مختصين (ببعث) أي بإرسال (خير رسله) أي أفضل رسله، وهو نبيّنا محمد - ﷺ - أي جعلنا

مختصين برسالته دون رسالة غيره من الأنبياء السابقين، فلم يجعلنا من أمة نوح، ولا من أمة موسى، ولا من أمة عيسى؛ وإنما جعلنا من أمة محمد - ﷺ - فنحن المقصورون على رسالته، وليست رسالته مقصورة علينا؛ لأنه مرسل لنا ولغيرنا من الإنس والجنّ والملائكة والحيوانات والأشجار والأحجار والأمدار.

وحينئذ فالباء بعد الاختصاص - - هنا - داخلة على المقصور عليه، لا على المقصور، وهو خلاف الغالب لكنه مستعمل وجيد كما ذكره الحبر الهمام السيِّد، (صلى عليه ربنا) جملة دعائية خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ لأن معناها اللهم صل عليه (وآله) أي أمة إجابته؛ لأن آل النبي في مقام الدعاء هم أمة الإجابة، فتشمل كل مؤمن ولو عاصياً، وتشمل الصحابة من باب أحرى وأولى؛ لأنهم خيار الأمة كما لا يخفى.

وفي البيت الأول براعة استهلال، وهي أن يأتي المتكلم في أول كلامه بما يشعر بمقصوده، فقولنا: أنشأنا، يشعر بأن هذا النظم في فن الإنشاء على سبيل الإشارة.

وفي البيت الثاني تلميح لقول الأخطل:

إنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا
جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

وبراعة الاستهلال والتلميح كلاهما من محاسن الإنشاء، كما سيأتي في ذكر محاسنه إن شاء الله تعالى.

ولما فرغتُ من الثناء على الله ورسوله، شرعت في بيان مزايا فَنِّ الإنشاء، فقلت:

وَبَـعْـدُ فَـالإِنْـشَـاءُ رُوحُ الأَدَبِ
وَسَـيِّـدٌ عَـلَى عُـلُومِ الْـعَـرَبِ
لِـذَاكَ يُـدْعَـى بِـأَمِـيـرِ الْـعِـلْمِ
وَعِـلْمِ حُـكَّـامٍ وَأَهْـلِ الْـفَـهْـمِ

قد نَصَّ العلماء على أن بعد كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر.

(و) المعنى انتقِلُ (بعد) أي بعد الثناء على الله ورسوله إلى بيان مزايا علم الإنشاء (فـ) أقول: (الإنشاء) أي علم الإنشاء له مزيتان كبيرتان:

الأولى: أنه (روح الأدب) أي كالروح لعلوم الأدب كلها؛ لأن الأدب كجسم، وعلوم الأدب الأُخَرُ كالأعضاء لذلك الجسم، وفن الإنشاء كالروح له، ومن المعلوم أن الجسم إذا وجدت فيه الروح يكون حياً ويستفاد منه، وإذا عدمت منه الروح لا يكون حياً ولا يستفاد منه، وحينئذ فعلوم الأدب إذا لم يكن فيها إنشاء لا تكون من العلوم الحية، بل تكون كالجسم الميت الذي لا فائدة فيه.

(و) المزية الثانية أنه (سيد على علوم العرب) المنظومةِ في قول بعضهم[1].

نَحْـوٌ وَصَـرْفٌ عَـرُوضٌ خَـطُّهُمْ لُـغَـةٌ
ثُـمَّ اشْتِـقَـاقٌ وَقَـرْضُ الشِّـعْـرِ إِنْـشَـاءُ
كَـذَا المعَـانِي الْبَيَـانُ الْـوَضْـعُ قَـافِيَـةٌ
تَـارِيـخُـهُـمْ وَبَـدِيـعٌ ثُـمَّ إِمْـلاءُ

(1) هذه الأبيات من نظمنا.

فَتِلْكَ خَمْسٌ وَعَشْرٌ لِبَنِي الْعَرَبِ
قَدْ نُسِبَتْ وَلَهَا الأُدَابُ أَسْمَاءْ

وإنما كان علم الإنشاء سيداً على علوم العرب كلها؛ لأنه يتصرف فيها تصرف السيد المالك في مماليكه، ويستعملها في جميع أغراضه ومواضيعه، بل ويستعمل معها العلوم الشرعية والعقلية أيضاً؛ ولذلك سماه أكثر الأدباء بأمير العلوم؛ لأن جميع العلوم تحتاج إلى التدوين، والتدوين لايتأتى إلاَّ بالإنشاء، فمن لم يعرف الإنشاء لا يقدر على التدوين، كما يسمى أيضاً بعلم الحكام وأهل الفهم، لشدة اعتنائهم به، وكثرة احتياجهم إليه، ولتأكده في حقهم أكثر من غيرهم؛ لأن الحاكم إذا كان أديباً منشئاً يكون كالبدر بين رعيته لا سيما الملوك والرؤساء كما لا يخفى.

ولما فرغت من بيان مزايا فَنِّ الإنشاء، شرعت في بيان سبب هذا التأليف، فقلت:

وَمَعَ ذَاكَ لَمْ أجِدْ مَنْ كَتَبَا
فِيهِ كِتَاباً جَامِعاً مُهَذَّبَاً
لأَجْلِ ذَا جَمَعْتُ مَا تَفَرَّقَا
فِي كُتْبِهِ مِمَّا بِهِ تَعَلَّقَا
وَبَعْدَ أَنْ نَقَّحْتُهُ بِفَهْمِي
قَرَّبْتُ حِفْظَهُ بِهَذَا النَّظْمِ

قد تقدم أن علم الإنشاء له مزايا عظيمة، (ومع ذاك) أي مع مزاياه التي تقدم ذكرها (لم أجد من) أعطاه حقه في التأليف، بحيث (كتبا) الألف للإطلاق، أي ألَّف (فيه كتاباً) أي تأليفاً (جامعاً) لأصوله، وشروطه، ومحاسنه، وعيوبه، وفنونه (مهذباً) أي منقحاً

ومصفى من الغلث، بل كل من كتب فيه إما لم يجمع، وإما لم ينقح (لأجل ذا) أي فلأجل عدم وجود كتاب متصف بالجمع والتنقيح (جمعت ما تفرقا في كتبه) حالة كونه (مما به) أي بعلم الإنشاء (تعلقاً) أي مما تعلق به من أصول وغيرها (بعد أن نقحته) أي صفيته وغربلته من الغلث (بفهمي) أي بما ألهمني الله من الفهم (قربت حفظه) للطلاب (بهذا النظم) السهل القصير الذي لايزيد على أربعة وأربعين بيتاً؛ لأن النظم أقرب في الحفظ من النثر، قال صاحب عقد اللآلي[1]:

وَبَعْدُ فَالنَّظْمُ قَرِيبُ الْحِفْظِ
لاَ سِيَّمَا إنْ كَانَ عَذْبَ اللَّفْظِ

ولما فرغت من بيان سبب التأليف، شرعت في بيان اسمه فقلت:

سَمَّيْتُهُ بِسُلَّمِ الإنْشَآءِ
يُرقَى بِهِ لِلرُّتْبَةِ الْعَلْيَاءِ
وَ اللَّه أرْجُو الْوَفْقَ لِلإتْمَامِ
وَأنْ يَكُونَ نَافِعَ الأنَامِ

سمّي من الأفعال التي تنصب مفعولين، إلاّ أن مفعولها الثاني يجوز دخول الباء عليه، تقول: سَمَّيْتُ ابني محمداً، وسميت ابني بمحمدٍ.

والمعنى (سميته) أي سميت هذا التأليف (بسلم الإنشاء) أي جعلت سلم الإنشاء علماً له.

---

(1) عقد الآلي في علم الوضع ـ ص 3.

والسلم ـ بضم السين، وفتح اللام المشددة ـ اسم آلة حسية معروفة يرقى بها من أسفل البناء إلى أعلاه، وقد استعير ـ هنا ـ لما يكون آلة للرقي المعنوي لما بينهما من المشابهة (يرقى) بالبناء للمجهول أي يتوصل (به) أي بسببه إن شاء الله تعالى؛ لأن الموصل حقيقة هو الله، وهذا التأليف سبب في التوصل لا غير (للرتبة) أي المنزلة (العلياء) أي العالية في فن الإنشاء؛ لأن من قرأه يكون عارفاً لأصول الإنشاء، وشروطه، ومحاسنه، وعيوبه، وفنونه، وكل من عرف ذلك نال أعلى مرتبة في فن الإنشاء.

(والله أرجو) أي أرجو الله لا غيره (الوفق) اسم مصدر بمعنى التوفيق (للإتمام) أي لإتمامه حتى يخرج إلى حيز الوجود (وأن يكون) أي وأرجو أن يكون (نافع الأنام) أي الخلائق الذين يقرؤونه بنية الانتفاع به.

وينحصر في مقدمة وبابين وخاتمة ثم قلت:

مقدمة في بعض مبادىء الفن العشرة

والمراد بالبعض ـ هنا ـ المبادىء الأربعة التي يتعين ذكرها؛ لعدم وجود مايدل عليها، وهي حده، وموضوعه، وثمرته، واستمداده، وأما الستة الباقية فلا يتعين ذكرها لوجود مايدل عليها في الجملة.

وقد بدأتُ ببيان حده، فقلت:

إنْشَاؤُنَا عِلْمٌ مُوَصِّلٌ إلَى
كَيْفِيَّةِ التَّعْبِيرِ عَنْ مَعْنىً جَلا
بِمَا يُعَدُّ حَسَنَ التَّرَكُّبِ
وَالمُفْرَدَاتِ عِنْدَ أَهْلِ الأَدَبِ

الإنشاء في اللغة يطلق على عدة معانٍ مختلفة: منها الإيجاد تقول: أنشأ الله العالم أي أوجده، ومنها الشروع تقول: أنشأ الغلام يمشي أي شرع في المشي، ومنها الوضع تقول: أنشأ فلان الحديث أي وضعه، ومنها النظم تقول: أنشأ فلان الشعر أي نظمه.

وفي الإصطلاح: يطلق على معنى واحد، أشرت إليه بقولي ـ في النظم ـ إنشاؤنا علم موصل.. إلخ. فنا في إنشاؤنا عائدة على أهل فن الإنشاء، فهي مثل: نا في قول صاحب الألفية:

«كلامنا لفظ مفيد كاستقم * . . .».

وموصل ـ بفتح الواو، وتشديد الصاد المهملة ـ اسم فاعل من وصَّل المضعف، وهو وارد في القرآن وغيره، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾[1].

والمعنى (إنشاؤنا) أي فن الإنشاء في الإصطلاح (علم) بأصول وقواعد (موصّل) أي يوصل من قرأه وفهمه (إلى كيفية) أي صفة (التعبير عن معنى جلا) أي ظهر (بما) أي بكلام (يعد) أي يحسب (حسن التركب والمفردات) أي يحكم عليه بأنه حسن في تركيبه وفي مفرداته (عند أهل الأدب) وهم أهل الإنشاء والكتابة، لأنه لا يحصل التمييز بين الكلام الحسن والردىء إلا بذوقهم، فهم للكلام كالعيار للذهب الذي يحصل به التمييز بين جيد الذهب ورديئه.

ثم قلت:

مَوْضُوعُهُ نَثْرٌ وَنَظْمٌ لِلْكَلاَمْ
غَايَتُهُ تَحْسِينُ مَامِنْهُ يُرَامْ
وَأَخْذُهُ مِنَ الْعُلُومِ كُلِّهَا
إذْ لاَ غِنًى فيهِ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا

قد تعرضت في هذين البيتين إلى بقية المبادىء الأربعة التي يتعين ذكرها، فقلت: (موضوعه) أي موضوع فن الإنشاء (نثر ونظم للكلام) أي الكلام المنثور والمنظوم.

(غايته) أي ثمرته وفائدته التي تستفاد منه (تحسين ما منه يرام) أي مايرام ويقصد من الكلام، سواء كان نثراً أو نظماً.

---

(1) القصص، الآية: 51.

(وأخذه) أي استمداده (من العلوم كلها) أي من كل العلوم، سواء كانت عربية، أو شرعية، أو عقلية (إذ) أي لأنه (لا غنى) أي لا استغناء (فيه) أي في الإنشاء (عن استعمالها) في مواضيعه؛ لأن المنشىء يحتاج لاستخدامها في جميع مواضيعه ولاستعمالها في جميع أغراضه، ولا يستثنى صنفاً من الكتابة بل يخوض في كل المباحث ويتعمد الإنشاء في كل المعارف البشرية.

ثم قلت:

باب أصول الإنشاء وشروطه

أُصُولُهُ عُرْفاً تُسَمَّى بِالْمَوَادْ
وَهْيَ ثَلاثٌ فِي الأَصَحِّ الْمُسْتَفَادْ

الضمير يعود على الإنشاء، فقولنا: (أصوله) أي أصول الإنشاء (عرفاً) أي في العرف (تسمى بالمواد) أي يسميها علماء هذا الفن مواد الإنشاء، والمواد جمع مادة، قال في القاموس: «المادة الزيادة المتصلة»[1].

فكلامه يدل على أن مادة الشيء هي مايكون منها المدد لذلك الشيء، ومنها مداد الحبر للكتابة.

والمراد هنا مايكون منها المدد لإنشاء الكلام، (وهي) أي مواد الإنشاء (ثلاث) لا أربع لها (في الأصح المستفاد) أي في القول الأصح المستفاد من كلامهم، حيث قالوا: عناصر البلاغة لفظ ومعنى وتأليف للألفاظ، يمنحها قوة وتأثيراً وحسناً.

الأولى: مادة ألفاظه، وإليها أشرت بقولي:

أَلْفَاظُهُ الْفَصِيحَةُ الْمُسْتَحْسَنَهْ
فِي ذَوْقِ أَهْلِ الأَدَبِ الدُّهَاقِنَهْ

---

(1) القاموس المحيط ـ جـ 1 ـ ص 337.

أي المادة الأولى من مواد الإنشاء الثلاثة هي (ألفاظه الفصيحة) احترازاً من غير الفصيحة؛ لأن غير الفصيح كالماء الثقيل الغليظ الجامع بين الملوحة والمرارة (المستحسنة) احترازاً من الفصيحة غير المستحسنة؛ لأن غير المستحسن كالماء الذي فيه أحد الوصفين، إما ثقل وملوحة، أو غلظ ومرارة، وأما القسم المستحسن فليس فيه ثقل وملوحة، ولا غلظ ومرارة، بل هو خفيف عذب (في ذوق أهل الأدب) أي أهل علم الأدب (الدهاقنة) جمع دهقان، قال في القاموس: «الدهقان - بالكسر والضم - هو القوي على التصرف مع حدة، والتاجر، وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم، معرب، وجمعه دهاقنة»[1].

والمراد بالدهاقنة. هنا - العلماء الأقوياء في فن الإنشاء، وهم الجهابذة فيه؛ لأنهم هم الذين غربلوا الألفاظ اللغوية بغربال الحُسْنِ، فأخذوا منها الحَسَنَ دون غيره، قال الإمام الجاحظ في كتاب البيان: «أما أنا فلم أر قوماً أمثل طريقة من الكتاب، وذلك أنهم التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً عامياً»[2].

ومراده بالمتوعّر مافيه تنافر، وبالوحشي مافيه غرابة، وبالساقط العامي ما فيه مخالفة للقياس الصرفي.

وحينئذ فكلامه يقتضي أن الألفاظ قسمان: قسم غير فصيح، وهو الذي اجتنبه الكتاب ولم يلتمسوه، وقسم فصيح، وهو الذي التمسوه واستعملوه في إنشائهم ومكاتباتهم.

وهذا التقسيم الذي اقتضاه كلامه فيه مخالفة للواقع.

---

(1) القاموس المحيط - جـ 4 - ص 224.

(2) جـ 1 - ص 137.

ولا يوافق الواقع إلاّ ماذكره ابن الأثير ـ في المثل السائر ـ حيث قال: «الألفاظ ثلاثة أقسام: قسم غير فصيح، وقسم فصيح مستحسن، وقسم فصيح مستكره.

فغير الفصيح هو ماترك استعماله السلف والخلف؛ لعدم فصاحته، إما لتنافر حروفه، أو لغرابته، أو لمخالفته للقياس الصرفي.

والفصيح المستحسن هو ماتداول استعماله السلف والخلف من الزمن القديم إلى زماننا هذا؛ لفصاحته وحسنه.

والفصيح المستكره، هو ماتداول استعماله السلف دون الخلف، وصار الخلف يعيبون على العرب استعماله، ويختلفون في سبب استعمالهم إياه، فبعضهم يقول: استعملوه اختياراً مع استحسانهم إياه لفضاضة طبعهم، وبعضهم يقول: استعملوه اضطراراً مع عدم استحسانهم إياه واعترافهم بقبحه وهو الأصح.

ولا يسبق وهمك إلى قول قصراء النظر بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا فهذا دليل على أنه حسن، بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسناً، والذي نستقبحه هو الذي كان عندهم مستقبحاً، وأن الاستعمال ليس بدليل على الحسن؛ لأنه قد يكون لضرورة فإننا نحن نستعمل الآن من الكلام ماليس بحسن، ولكن لا نستعمله إلاّ لضرورة، فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال.

وأعلم أن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب، لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال، وإنما شيء له خصائص

الفلسفة، ونظم أهم غزوات الرسول، ونظم تاريخ التشريع وعلامات، إذا وجدت علم حسنه من قبحه[1].

وقال أيضاً: «فإن قيل من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه، وعلموا القبيح منها حتى تركوه؟

قلت في الجواب: قد علموا ذلك من الحسُّ والذوق؛ لأن هذا من الأمور المحسوسة التي شَاهِدُها من نفسها؛ لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح.

ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل، ولا ينفر من صهيل الفرس، ويكره صوت الغراب، وينفر من نهيق الحمار، فكذلك الألفاظ جارية هذا المجرى، فإنه لا خلاف في أن لفظة «المزنة حسنة يستلذها السمع، وأن لفظة «البعاق» قبيحة يكرهها السمع، وكلا اللفظين من صفات المطر، ويدلان على معنى واحد، ومع ذلك فإنك ترى لفظة «المزنة» وماجرى مجراها مألوفة الاستعمال عندهم، وترى لفظة «البعاق» وماجرى مجراها متروكة الاستعمال عندهم، وإن استعملت فإنما يستعملها جاهل بأصول الأدب والإنشاء، أو من ذوقه غير سليم ولا يعتد بكلامه، ولو كان عربياً خالصاً من الجاهلية الأقدمين؛ لأن الأصل إذا عرف وجب الوقوف عنده، وعدم التعويل على سواه». انتهى من المثل السائر باختصار وتصرف[2].

إذا علمت ذلك، تعلم أن ماذكره ابن الأثير في المثل السائر من أن الألفاظ ثلاثة أقسام هو الذي يؤيده العقل والنقل؛ ولذلك تبعته في

---

(1) انظر المثل السائر ـ جـ 1 من 171 ـ 176 .

(2) المثل السائر جـ 1 ـ ص 91 ـ 92 .

هذا النظم حيث قلت: ألفاظه الفصيحة المستحسنة؛ لأن ماوجدت فيه الفصاحة والحسن هو قسم الألفاظ الأدبية، وماوجدت فيه الفصاحة دون الحسن هو قسم الألفاظ الفصيحة غير الأدبية، وتستعمل في الشعر والنثر إذا دعت الضرورة إليها، كـ «الجرشّى» في كلام أبي الطيب المتنبي لمّا مدح سيف الدولة بقوله[1].

مُبَارَكُ الاسْمِ أعزُّ اللَّقَبْ
كَرِيمُ الْجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ

أي كريم النفس.

وكـ «عُتل» في قوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم﴾. [2]

ومافقدت منه الفصاحة والحسن، فهو قسم الألفاظ المهجورة التي لا يستعملها إلاّ الجلف الغليظ الطبع الذي لا ذوق له، كقول الأعرابي الذي سئل عن ناقته فقال: «تركتها ترعى الخعخع».

وكقول أمرىء القيس في مدحه لِشَعْرِ رأس عنيزة ابنة عَمِّهِ: [3]

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلَى الْعُلَى
تَضِلُّ الْعِقَاصُ في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

أي مرتفعات إلى العلي.

وكقول بعضهم: مالكم تكأكأتم [أي اجتمعتم] عَلَيَّ كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا [أي انصرفوا] عَنِّي.

---

(1) ديوان المتنبي 1 ـ 99.

(2) القلم، الآيات: 10 ـ 11 ـ 12 ـ 13.

(3) ديوان امرىء القيس ـ ص 17.

وكقول أبي النجم:[1]

الحَمْدُ لِلّهِ العَلِيِّ الأَجْلَلِ
الوَاحِدِ الْفَرْدِ الْقَدِيمِ الأَوَّلِ

بفك الأجلل، ومأأشبه ذلك.

والحاصل أن المادة الأولى من مواد الإنشاء هي ألفاظه المتصفة بالفصاحة والحسن.

أما الفصاحة فهي في اللغة تطلق على معان يرجع جميعها إلى البيان والظهور، قال الله تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾[2] أي أبين مني منطقاً وأظهر مني قولاً، ويقال: أفصح الصبي في منطقه إذا أبان وظهر كلامه، وقالت العرب: أفصح الصبح إذا بان ضوؤه، وأفصح الأعجمي، إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين.

وفي اصطلاح البلغاء والأدباء معاً: عبارة عن النطق بالألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم، والمألوفة الاستعمال بين الكتاب والشعراء، وتكون وصفاً للكلمة والكلام والمتكلم حسبما يعتبر الكاتب اللفظة وحدها، أو مسبوكة مع أخواتها.

ولا تتصف الكلمة عندهم بالفصاحة إلاّ إذا خلصت وسلمت من التنافر، ومن الغرابة، ومن خلف القياس الصرفي، قال في الجوهر المكنون[3]:

فَصَاحَةُ المُفْرِدِ أنْ يَخْلُصَ مِنْ
تَنَافُرٍ غَرَابَةٍ خُلْفِ رُكِنْ

---

(1) جواهر البلاغة ـ ص 10.

(2) القصص، الآية: 34.

(3) شرح الجوهر المكنون ـ ص 23.

فالتنافر: وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان، وصعوبة النطق بها، بسبب تقارب حروفها في المخرج أو تباعدها فيه، سواء كان الثقل شديداً، كـ «الظش» للموضع الخشن و «الخعخع» لنبت ترعاه الإبل، أو غير شديد كـ «النقاخ» للماء العذب الصافي، وكـ «مستشزرات» بمعنى مرتفعات.

والغرابة هي كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مألوفة الاستعمال، فتحتاج معرفتها إلى تفتيش عنها في كتب اللغة المطوّلة المشتملة على غريب اللغة، نحو «تكأكأتم» بمعنى اجتمعتم، ونحو: «افرنقعوا» بمعنى انصرفوا.

وخلف القياس الصرفي هو كون الكلمة شاذة غير جارية على القياس الصرفي المستنبط من كلام العرب، مثل: «الأجلل» في قول أبي النجم: «الحمد لله العلي الأجلل» بالفك والقياس الأجل بالإدغام، ولا مسوغ لفكه.

ويستثني من ذلك ماثبتت فصاحته مع شذوذه كـ «المشرق» و «المغرب» بكسر الراء فيهما، والقياس فتحها؛ لأنهما من باب دخل وقعد، والمفعل منهما مدخل ومقعد بالفتح لا بالكسر، وكأَبَى يَأْبَى بفتح العين في الماضي والمضارع، مع أن باب فعل ـ بفتح العين ـ لا تكون عينه في المضارع مفتوحة كالماضي إلاّ إذا كانت عينه أو لامه حرفاً من حروف الحلق الستة.

فإذا سلمت الكلمة من هذه العيوب الثلاثة تكون فصيحة؛ لأن سلامتها من التنافر تجعلها خفيفة على اللسان، وسلامتها من الغرابة تجعلها مألوفة الاستعمال، وسلامتها من خلف القياس تجعلها قياسية غير شاذة.

قال العلامة السيوطي في شرح عقود الجمان: «أما التنافر فيدرك بالحِسّ، وأما الغرابة فتدرك بعلم اللغة، وأما خلف القياس فيدرك بعلم الصرف» انتهى كلام السيوطي بتصرف.[1]

وأما الحُسْنُ فهو في اللغة ضد القبح، واصطلاحاً: كون الألفاظ خفيفة عذبة، يطرب السمع لسماعها، كما يطرب العطشان لشرب الماء الخفيف العذب.

وقد اختلف فيه، فذهب الهاشمي في كتابيه جواهر البلاغة[2] وجواهر الأدب[3]، إلى أنه شرط رابع في الفصاحة، فالكلمة عنده لاتكون فصيحة إلاّ إذا سلمت من التنافر، ومن الغرابة، ومن خلف القياس الصرفي، ومن الكراهة في السمع، واتصفت بالحسن، وعلّل ذلك بأن الحسن يكون سبباً في كثرة الاستعمال، وكثرة الاستعمال تكون سبباً في الظهور، والظهور هو معنى الفصاحة لغة واصطلاحاً.

وقد اعترض عليه بعدة أمور:

- منها أن الكلمة قد تكون حسنة في ذوق زيد، وغير حسنة في ذوق عمرو؛ لأن الناس يختلفون في الذوق كما يختلفون في الفهم، وهو أمر مشاهد لا يقدر أحد أن ينكره.

- ومنها أن الكلمة قد تستحسن في مكان وتستقبح في مكان آخر، فيلزم عليها أن تكون الكلمة فصيحة وغير فصيحة باعتبارين، وهو أمر لا يعقل.

---

(1) انظر شرح عقود الجمان ـ ص 8.

(2) انظر جواهر البلاغة ـ ص 6 ـ 12.

(3) انظر جواهر الأدب ـ ص 30 ـ 32.

ـ ومنها أن السعد في شرحه على التلخيص[1]، جعل الحسن من صفات اللفظ العرضية؛ لأنه يرجع إلى طيب النغم، والفصاحة من صفاته الذاتية، لأنها ترجع إلى نفس اللفظ فهما متغايران.

ـ ومنها أن القسم الذي استعمله السلف دون الخلف إنما تركه الخلف؛ لأنه لم يتصف بالحسن عند أهل الأدب والإنشاء، فيلزم عليه أن يكون غير فصيح، مع أنه من قبيل الفصيح عند الجمهور.

ـ ومنها أنه يلزم عليه أن تكون الكلمة الفصيحة قليلة جداً؛ لأن كل مافيه تنافر غير فصيح، وكل مافيه غرابة غير فصيح، وكل مافيه خلف للقياس الصرفي غير فصيح، فلو قلنا: وكل مايكرهه السمع ـ على رأي الهاشمي ـ غير فصيح؛ لما ثبتت الفصاحة إلّا لعدد قليل من كلمات اللغة العربية، ولا قائل بذلك.

وذهب الجمهور إلى أن الحسن شرط في كون الكلمة أدبية، وأن الألفاظ ثلاثة أقسام: قسم غير فصيح، وقسمان فصيحان أحدهما: مستحسن أدبي، والآخر غير مستحسن، وغير أدبي كما قال ابن الأثير في المثل السائر.

وهو الذي يؤيده العقل والنقل، وهذا عندي هو الصحيح؛ ولذلك درجت في هذا النظم عليه وتركت ماسواه.

الثانية من مواد الإنشاء، مادة مناسبة اللفظ لمعناه، وإليها أشرت بقولي:

وَأن يَكُونَ اللَّفْظُ ذَا مُنَاسَبَةْ
في الوَضْعِ لِلْمَعْنَى الَّذِي قَدْ صَاحَبَهْ

---

(1) انظر جـ ١ ـ ص 45 ـ 46.

إمَّـا لِـعُـرْفٍ قَـدْ جَـرَى أَوِ اتِّـفَـاقْ
مُسْتَحْسَنٍ يَـظْهَـرُ فِيـهِ الانـطِبَـاقْ

قد تعرضت في هذين البيتين، لبيان المادة الثانية من مواد الإنشاء، وهي مادة مناسبة اللفظ للمعنى، فقلت: (وأن يكون) أي والمادة الثانية أن يكون (اللفظ) أي لفظ الإنشاء (ذا مناسبة) أي مناسباً (في الوضع) أي في وضعه (للمعنى الذي قد صاحبه) أي استعمل فيه، وتلك المناسبة (إمَّا) أن تكون (لعرف قد جرى) بذلك كلفظة «دَابَّة» فهي في اللغة تطلق على كل ما دب على وجه الأرض، وقد خصصها العرف العام بخصوص مايركب من ذوات الأربع، ثم خصصها تخصيصاً ثانياً بالحمار لا غير، فهي الآن لا تطلق إلَّا على الحمار؛ لجريان العرف بذلك.

وكلفظة «نَحْوٍ» فهي في اللغة تطلق على عدة معان مختلفة، منها القصد، ومنها الجهة، ومنها المقدار، ومنها المِثْلُ، ومنها البعض.

وقد أشار بعضهم إلى هذه المعاني الخمسة بقوله:

نَـحَـوْنَـا نَـحْـوَ دَارِكَ يَـاحَـبِـيـبِـي
وَجَـدْنَـا نَـحْـوَ أَلْـفٍ مِـنْ رَقِـيـبِ
وَجَـدْنَـاهُـمْ غُـوَاةً نَـحْـوَ كَـلْبِ
تَـمَـنَّـوْا مِـنْـكَ نَـحْـواً مِـنْ شَـرِيـبِ

وقد نقلها العرف وجعلها اسماً لفن من فنون العربية، وهو الفن الذي يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم أعراباً وبناءً وإفراداً وجملة، فهي الآن إذا أطلقت لا تنصرف إلَّا إليه، لجريان العرف بذلك.

(أو اتفاق) أي توافق وتصادف (مستحسن يظهر فيه الانطباق)

أي التطابق كتسمية الليالي الثلاثة التي في أواسط الشهر العربي بالليالي البيض؛ فإنه من باب الاتفاق المستحسن الذي يظهر فيه تطابق الاسم للمسمى؛ لبياض تلك الليالي بضوء القمر من أول الليل إلى الصباح.

قال أبوتمام لتلميذه البحتري: «وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام». [1]

وقال الماوردي في أدب الدين والدنيا: «أما المناسبة فهي أن يكون المعنى يليق بالألفاظ، إما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى صارت تلك المعاني لو ذكرت بغير تلك الألفاظ كانت نافرة عنها، وإن كانت أفصح وأوضح لاعتياد غيرها». [2]

فإذا أمعنت النظر في كلام أبي تمام، وكلام الماوردي وجدتهما يتفقان على أن المعاني هي القوالب للألفاظ بالنسبة للأديب المنشىء، لأنه يستحضر المعنى أولاً، ثم يضع اللفظ له ثانياً، على قدره، ومثله المؤلف والمدرس، وأما ما اشتهر بين الناس من أن الألفاظ قوالب للمعاني، فهو بالنسبة للقارئين والسامعين؛ لأنهم يأخذون المعنى من المقروء والمسموع.

ويختلفان في تلك المعاني التي هي قوالب الألفاظ، فأبوتمام يجعلها من قبيل الأجسام الاعتبارية، ويجعل الألفاظ أثواباً لها، والثوبُ غير الجميل لا يزيِّن البدن، بل يشنيه في بعض الحالات، ولا

(1) جواهر الأدب ـ ص 28.
(2) أدب الدين والدنيا ـ ص 254.

يتـزين الجسم إلاّ بالثـوب الجميل، فيختـار له الثـوب الجميل الـذي تحـل فيه الـزينة، وهـو اللفظ الحسن المناسب الـذي يـزين المعنى، وعلى طريقة أبي تمام هذه فالألفاظ هي المزينة للمعاني.

والماوردي يجعل المعاني منازل اعتبـارية ومحـلات للألفـاظ، ويجعـل الألفاظ حَـالَّـة في تلك المنـازل والمحـلات، والمحـل غيـر الجميـل لا يـزين من سكنـه، بـل يشينــه ويحط من قـدره في بعض الحـالات، ولا يتزين السـاكن وينبسط ويتمتع إلاّ بـالمنـزل الجميـل، فيختـار له المنـزل الجميل الـذي يتزين بـه وينبسط فيه، وهـو المعنى الحسن المناسب الذي يزين اللفظ النازل فيه.

وعلى طـريقة المـاوردي هذه فـالمعاني هي المـزينة لـلألفاظ. وإلى هاتين الطريقتين أشار بعضهم بقوله:

تَـزِيـنُ مَـعَـانِيـهِ أَلْـفَـاظَـهُ
وَأَلْـفَـاظُـهُ زَائِـنَـاتُ الـمـعَـانِـي

فهـذا البيت شطره الأول يشيـر إلى طريقـة المـاوردي، وشـطره الثـاني يشيـر إلى طـريقـة أبي تمـام، خـلافـاً لمن حمله على غيـر الطريقتين المذكورتين، وجعل معناه أن كلا منهما مزين للآخر؛ لسوء فهمه كما لا يخفى.

وبعض الأدباء جعل طريقة الماوردي من باب تنزيل الأشياء في منازلها وإحلالها في محلها اللائق بهـا؛ لأن وضع الكلمـة في المعنى اللائق بها بمنزلة تنزيل الشخص في منـزلته التي يستحقهـا، وإحلالـه في محله اللائق به، فلا ينفر منـه ولا يقلق، ولا يعد غـريباً فيـه، وأما وضعها في غير المعنى اللائق بها، فهو بمنزلة تنزيل الشخص في غير منـزلته التي يستحقهـا، وإحلالـه في غير محله الـلائق به، فينفـر منـه

ويقلق ويعد غريباً فيه، وهو توجيه حسن.

الثالثة من مواد الإنشاء: مادة جودة تركيب ألفاظه، وإليها أشرت بقولي:

وَجَوْدَةُ التَّرْكِيبِ بِالْقَوَاعِدِ
لاَسِيَّمَا مَعَ اخْتِرَاعِ زَائِدِ
وَلَوْ بِاغْرَابٍ لِذِي ابْتِذَالِ
حَتَّى يُفِيدَ طُرْفَةَ الْمَقَالِ

قد تعرضت في هذين البيتين لبيان المادة الثالثة من مواد الإنشاء، وهي مادة جودة التركيب لألفاظه، فقلت:

(وجودة التركيب) أي والمادة الثالثة جودة التركيب (بالقواعد) أي بسبب مراعاة القواعد النحوية.

قال الهاشمي - في تعليقه على جواهر البلاغة -: «وأدنى الجودة أن يكون تركيب الألفاظ في الإنشاء، موافقاً للقواعد النحوية، وأعلاها أن يصل إلى حد الإعجاز» إهـ باختصار.[1]

وقال الحسن العسكري - في كتاب الصناعتين -: «مرجع الجودة في الجمل المركبة إلى أمرين: مراعاة القواعد والذوق السليم، وتختلف جودة التركيب أحياناً باختلاف التعبير عما يدور في النفس من المعاني اختلافاً ظاهراً، فتجد في عبارات الأدباء من الحسن والجودة مالا تجد في تعبير غيرهم، مع اتحاد المعني الذي عبر عنه كل منهما، بل ويختلف الأدباء أنفسهم في أساليبهم، فقد

(1) انظر ص - 21 - 22 - ومن ص 32 - ص 33.

يعلو بعضهم في أسلوبه، فتارة يسيل رقة وعذوبة ويصل إلى القلوب، فيبلغ منها ما يشاء أن يبلغ، وذلك نوع من البيان يكاد يكون سحراً، وقد يكون دون هذه المنزلة قليلاً أو كثيراً، وهو مع ذلك من فصيح القول، وحسن البيان»[1] إهـ.

وقولنا: (لا سيما مع اختراع زائد) يتعلق به بحثان:

الأول: في بيان معناه، **والثاني**: في بيان إعرابه.

فأما البحث الذي في بيان معناه، فلم أرَ من كتب على سيما كتابة أحسن وأوضح مما كتبه صاحب المصباح المنير حيث قال: السِّيُّ المِثْلُ، وهما سِيَّان أي مثلان، وسِيَّما مشدد، ويجوز تخفيفه، وفتح السين مع التثقيل لغة قال ابن جنى: يجوز أن تكون ما زائدة في قوله: «وَلاسِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُل»[2] فيكون لفظ يوم مجروراً بها على الإضافة، ويجوز أن تكون موصولة، فيكون لفظ يوم بعدها مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ولا مثل اليوم الذي هو يوم بدارة جلجل، إلى أن قال: ونقل السخاوي عن ثعلب أن من قاله بغير اللفظ الذي جاء به امرىء القيس فقد أخطأ، يعني بغير لا، وَوَجَّه ذلك بأن لا وسيما تركبا وصارا كالكلمة الواحدة، وتساق لترجيح مابعدها على ماقبلها، فيكون كالمُخْرَجِ عن مساواته إلى التفضيل، فقولهم: تستحب الصدقة في شهر رمضان، لا سيما في العشر الأواخر، معناه واستحبابها في العشر الأواخر آكد وأفضل، فهو مفضل على ماقبله، وقال أيضاً: إن المعنى في قول امرىء القيس مضت لنا

---

(1) كتاب الصناعتين ـ ص 153.

(2) هذا عجز بيت، صدره: ألارب يوم لك منهن صالح وهو من معلقة امرىء القيس ـ انظر ديوان امرىء القيس ص 10.

أيام طيبة لكن ليس فيها يوم مثل يوم دارة جلجل، فإنه أطيب من غيره، وأفضل من سائر الأيام.

ولو حُذِفَتْ «لا» لكان المعنى: مضت لنا أيام طيبة مثل يوم دارة جلجل، فلا يبقى فيه مدح ولا تعظيم انتهى مصباح باختصار.(1)

وقياساً على ذلك يكون معناها - في نظمنا هذا - أن التركيب الإنشائي إذا كان بمراعاة القواعد النحوية يكون متصفاً بالجودة، لكن ليست مثل الجودة التي تكون مع اختراع شيء زائد؛ لأن الاختراع فيه فائدة زائدة فيكون أجود وأحسن كما لا يخفى.

وأما البحث الذي في بيان إعرابها فهو أن تقول: لا: نافية للجنس، وسِيَّ - بتشديد الياء - اسمها، منصوب بالفتحة الظاهرة، وسيَّ مضاف، وما: اسم موصول، مبنى على السكون في محل جر مضاف إليه، ومع: منصوب على الظرفية، متعلق بتكون محذوفة وجملة تكون المحذوفة صلة ما، واختراع: مضاف إليه، وزائد وصف لموصوف محذوف تقديره: مع اختراع شيء زائد.

ومعنى البيت بتمامه أن التركيب الإنشائي إذا كان مرتبطاً بالقواعد النحوية يكون متصفاً بالجودة، لكن ليست مثل الجودة التي تكون مع اختراع شيء زائد؛ لأن الاختراع فيه فائدة زائدة فتكون الجودة معه أبلغ وأحسن.

والاختراع يسمى أيضاً إبداعاً وابتكاراً، سواء كان في اللفظ نحو: قوله تعالى: ﴿**ولما سقط في أيديهم**﴾(2) فإنه لم يسمع قبل نزول القرآن به.

---

(1) انظر المصباح المنير ص 321 - 322.

(2) الأعراف، الآية: 149.

أو في المعنى إلا أنه تارة يكون فطرياً، وهو ماأورده الطبع السليم بلا تصنع، ولا إعمال روية، ودل على بعض السذاجة في قائله، كقول من سئل هل تسافر في البحر؟ فأنشأ يقول:[1]

لَا أَرْكَبُ الْبَحْرَ أَخْشَى
عَلَيَّ مِنْهُ الْمَعَاطِبْ
طِينٌ أَنَا وَهْوَ مَاءٌ
وَالطِّينُ فِي الْمَاءِ ذَائِبْ

وتارة يكون بتصنع وإعمال روية، يدلان على نجابة قائله، كقول ابن عنين في فخر الدين سليمان الرازي، حين دخلت في حجرته حمامة لاجئة من صقر يريد اصطيادها.[2]

جَاءَتْ سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ حَمَامَةٌ
وَالْمَوْتُ يَلْمَعُ مِنْ جَنَاحَيْ خَاطِفِ
مَن أَنْبَأَ الْوَرْقَاءَ أَنَّ مَحَلَّكُمْ
حَرَمٌ وَأَنَّكَ مَلْجَأٌ لِلْخَائِفِ

وتارة يكون بتصرف قوي وإغراب يُصَيِّرُ اللفظ المبتذل دقيقاً حسناً، وهذا النوع يسمى الطرفة والنادرة، وإليه أشرت على سبيل المبالغة في النظم بقولي: (ولو بإغْرَابٍ لذي ابتذال) أي هذا إذا كان الاختراع بدون إغراب، بل ولو كان بإغراب.

والإغراب - بالغين المعجمة - مصدر أغرب، إذا أتى بشيء غريب غير مألوف.

---

(1) جواهر الأدب - جـ 1 - ص 17.
(2) جواهر الأدب - جـ 1 ص 17.

والمـراد هنا أن يتصـرف في القريب المبتـذل بما يُصَيِّره دقيقـاً حسناً.

والابتـذال ـ لغـة ـ الامتهـان، فثـوب البـذلـة هـو ثـوب المهنـة والحرفة، الذي يصير بكثرة الاستعمال رديئـاً ضعيفاً وسخـاً، لا يلبس للجمعة ولا للسوق، فضلاً عن الأعياد والاحتفـالات، كذلـك الألفاظ المبتذلة التي كثر امتهانها، واستعمالها، وتداولها بين الخاص والعام، حتى ألحقت بـألفـاظ العـوام، فـإنهـا تصيـر بكثـرة الاستعمـال رديئـة وضعيفـة ومخلولقـة، لا تستعمــل في التـآليف العلميــة، فضـلاً عن الإنشاء الأدبي، لكن إذا تصرف فيها الإنسان تصـرفاً قـوياً (حتى) أي إلى أن (يفيد) بذلك التصرف (طرفة المقال) يكون قـد أغرب وعجَّب وأتى بالنوادر الطريفة العجيبة كقول الشاعر.[1]

تَـرَاءَى وَمِـرْآةُ الـسَّـمَـاءِ صَـقِـيـلَـةٌ
فَـأَثَّـرَ فِـيـهَـا وَجْـهُـهُ صُـورَةَ الْبَـدْرِ

فإن تشبيه الجميـل بالبـدر أمر مشهـور وقريب مبتـذل، لكن لما تصـرف فيه بـزيادة هـذه النادرة الغـريبة، حيث شبـه السماء في حـال صقالتها بالمرآة التي تـظهر فيهـا الصور، وجعـل لوجـه الجميل نـوراً يسطع في تلك السماء عند مقابلته لها، فيؤثر فيها حتى تظهر منـه فيها صـورة تشبـه القمر ليلة أربعـة عشر في الشهـر، أخـرجـه إلى حـد الإغراب؛ ولذلك قال ابن الأثير في المثل السائر:

«ولا أريد بذلك [أي بالإغـراب] أن تكون ألفـاظه غـريبة، فـإن ذلك عيب فاحش، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً

---

(1) شرح عقود الجمان ـ ص 170.

غريباً، يظن السامع أنها غير مافي أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس، وهناك معترك الفصاحة الذي تُظْهِرُ فيه الخواطرُ براعتَها، والأقلام شجاعتها. انتهى من المثل السائر.[1]

ثم قلت:

وَهْيَ أَهَمُّ حَيْثُ مِنْهَا يَنْجَلِي
الْفَرْقُ بَيْنَ مُنْشِيءٍ وَجَاهِلِ

وَتُوصِلُ الْمُنْشِيءَ لِلْجِنَاسِ
وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالاقْتِبَاسِ

وَصَنْعَةِ التَّضْمِينِ وَالتَّلْمِيحِ
إِذَا أَرَادَ أَدَبَ التَّمْلِيحِ

ولما فرغت من بيان مواد الإنشاء الثلاثة، شرعت في بيان الأهم منها؛ فأشرت في هذه الأبيات إلى أن أهمها جودة التركيب، حَيْثُ قلت: (وهي) أي جودة التركيب؛ لأنها أقرب مذكور، والأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور (أهم) أي أكثر أهمية، فأفعل التفضيل على بابه، يقتضي المشاركة والزيادة؛ لأن مواد الإنشاء كلها مهمة، إلّا أن جودة التركيب أكثرها أهمية (حيث) أي لأنها، فالحيثية للتعليل (منها ينجلي) أي يظهر منها ويتضح (الفرق بين منشىء) أي قادر على الإنشاء (وجاهل) أي عاجز عن الإنشاء، لا جاهل بالمرة؛ لأن الكلام ليس فيه كما لا يخفى.

ولذلك قال ابن الأثير في المثل السائر: وهذا الوصف [أي الذي هو جودة التركيب] صعب المنال، كثير الإشكال، يحتاج إلى

(1) المثل السائر ـ جـ 1 ص 97.

لطف ذوق، وشهامة خاطر، وليس كل خاطر بِرَاقٍ إلى هذه الـدرجة، بل «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».[1]

ولا أريد بهذا القول إهمال جانب المعاني، بحيث يؤتى باللفظ موصوفاً بصفات الحسن والملاحة، وجـودة التركيب، ولا يكـون تحته من المعاني مايماثله ويساويه، فإنه إذا كان كذلك كـان كصورة حسنـة بديعة في حسنها، إلاّ أن صاحبهـا بليد أبله، بـل أريد أن تكـون هذه الألفاظ جسماً حسناً لمعنى شريف.

على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها، بدليل أنه يوجد كثير من الجهال الذين هم من السوقة، أرباب الحرف والصنائع، ومامنهم إلاّ من يقع له المعنى الشريف، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظين.

وحينئذ فجودة التركيب هي التي بها يكون خلب العقول، وحصول الفرق بين العالم والجهول، لأن الناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني، فإنه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة، قادراً على استخراج المعاني؛ لأن استخراج المعاني إنما هو بالذكاء، لا بتعلم العلم، بخلاف جودة التركيب فلا تكون إلا بتعلم العلم انتهى من المثل السائر بتصرف.[2]

ثم عللت أهمية جودة التركيب بعلة ثانية، فقلت: (وتوصل) أي ولأنها توصل، من أوصل الرباعي، كأكرم، أي تكون سبباً في إيصال الله (المنشىء للجناس) أي لصنعة الجناس (والحل) أي وصنعة الحل

---

(1) الحديد، الآية: 21.

(2) انظر المثل السائر - جـ 1 - ص 97 - 98.

(والعقد) أي وصنعة العقد (والاقتباس) أي وصنعة الاقتباس (وصنعة التضمين) وسيأتي بيان الفرق بين العقد والاقتباس والتضمين إن شاء الله تعالى (والتلميح) وصنعة التمليح (إذا أراد) المنشىء (أدب التمليح) أي التحسين والتزيين، قال في القاموس: مَلَّح الشاعر أتى بشيء مليح، وقال أيضاً: «والحُسْنُ مَلُحَ كَكَرُمَ فهو مَليح»[1] إهـ.

وها أنا أشرح هذه الأمور الستة على الترتيب، فأقول:

أما الجناس فهو من المحسنات البديعية وهو نوعان: لفظي، ومعنوي، والمراد هنا اللفظي، وهو اتفاق الشطرين من البيت أو السجعتين من النثر في شيء من الأمور الراجعة للفظ مع اختلاف المعنى، ومنه ما يسمى تاماً، وهو ماااتفق في الحروف والشكل، ومنه ما يسمى محرفاً، وهو مااتفق في الحروف، واختلف في الشكل.

قال بعض العلماء: الجناس للكلام كالملح للطعام، قليله يزين، وكثيره يشين، وأحسنه ماوقع في الكلام سهلاً عذباً من غير تكلف، كقول بعضهم - في الجناس التام في الشعر -:

رَأَيتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا ... إلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالُ
وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ مَالُ ... فَعَنْهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا

وقالوا - في النثر -: «لا تحسن تأدية المعاني، إلا بمراعاة علم المعاني».

---

(1) القاموس المحيط جـ 1 ص 250.

ومن الجناس المحرف في الشعر قول بعضهم:

رَأَيْتُ النَّاسَ مُنْفَضَّهْ
إِلَى مَنْ عِنْدَهُ فِضَّهْ
وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ فِضَّةْ
فَعَنْهُ النَّاسُ مُنْفَضَّهْ

وقالوا - في النثر على سبيل الدعاء -: «غفر الله ذُنُوبَك، وملأ من البركات ذَنُوبَك».

أي دَلْوَكَ ؛ لأن الذنوب - بفتح الذال المعجمة - هو الدلو الكبير.

إذا علمت ذلك تعلم أن الجناس يكون في الشعر والنثر، لا في الشعر فقط خلافاً لمن توهم ذلك.

وأما الحَلُّ: ويقال له نثر الشعر، فهو أن يحل الإنسان الشعر إلى لفظ النثر، وهو ثلاثة أنواع: مذموم، ومتوسط، ومحمود.

فإن كان من قبيل أخذ المعنى واللفظ من غير زيادة فهو مذموم، وعيب فاحش، وسرقة جلية، ونظيره من أخذ عقداً قد أتقن نظمه، وأحسن تأليفه فأوهاه وبدده، وأخرجه من صورة الحسن إلى صورة القبح.

وإن كان من قبيل أخذ المعنى واللفظ مع زيادة، فهو متوسط إلاّ أنّ الزيادة إن كانت أبلغ ؛ لاختصاصها بفضيلة كحسن سبك، أو إيضاح معنى، أو عذوبة لفظ، أو تتميم نقص، تصيره حسناً مقبولاً، كقول بعض المغاربة: «فَإِنَّهُ لَمَّا قَبُحَتْ فِعْلاَتُهُ، وَحُظِلَتْ نجلاَتُهُ، لَمْ يَزَلْ سُوءُ الظَّنِّ يَقْتَادُهُ، وَيُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ الَّذِي يَعْتَادُهُ».[1]

---

(1) شرح السعد - جـ 3 ص 147.

حَلَّ به قول أبي الطيب المتنبي:

إذَا سَاءَ فِعْلُ المرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ
وَصَدَّقَ مَايَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

فإن الزيادة التي في الحَلّ قد اشتملت على إيضاح للمعنى مع حسن السبك، ولذلك صار بها الحل حسناً مقبولاً.

وإن كان من قبيل أخذ المعنى دون اللفظ، فهو محمود، وأحسنه ما انصلخ فيه المعنى من جميع اللفظ، كانسلاخ اللحم من جميع الجلد، بحيث يؤخذ المعنى ويصاغ بألفاظ غير ألفاظه، وهناك يتبين حذق الصائغ في صياغته، ويعلم مقدار تصرفه في صناعته، كقول بعضهم: «لَا تَلُمِ المحُبَّ فيما يَهْوَاهُ، حَتَّى تَطْوِىَ الْقَلْبَ عَلَى مَاطَوَاهُ»[1].

حَلَّ به قول أبي الطيب المتنبي:

لَاتَعْذُلِ المُشْتَاقَ في أَشْوَاقِهِ
حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ في أحشَائِهِ

وسيأتي الكلام على حل الشعر للتدرب على الإنشاء إن شاء الله تعالى.

وأما العقد فهو عكس الحل، وذلك بأن ينظم الإنسان شيئاً من القرآن أو من الحديث أو من غير ذلك على وجه يشعر بالذي أخذ منه، بأن يكون فيه عَزْوٌ بقال ونحوه، ويغتفر فيه التغيير مطلقاً، ولو كثر، وما

---

(1) المثل السائر ـ جـ 1 ص 106.

أظن في جوازه خلافاً، فلا زالت الائمة عليه فمن عقد القرآن قول بعضهم: [1]

أَنِلْنِي بِـالَّـذِي اسْتَقْـرَضْـتُ حَـظًّا
وأشهِـدْ مـعشـرًا قَـدْ شَـاهَـدُوهُ
فَـإنَّ الـلَّه خَـلاَّقَ الـبَـرَايَـا
عَـنَتْ لِـجَـلاَلِ هَـيْـبَـتِـهِ الْـوُجُـوهُ
يَـقُـولُ: «إذَا تَـدَايَـنْـتُـمْ بِـدَيْـنٍ
إلَى أجَـلٍ مُـسَـمًّـى فَـاكْـتُـبُـوهُ»

عقده من قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾. [2]

ومن عقد الحديث قول بعضهم: [3]

فِي خَبَـرٍ يَتَّخِـذُ الإنْـسَـانُ فِي
دُنْيَـاهُ كَيْـمَـا يَسْتَقِـيمَ دِيـنُـهُ
قَلْبـاً شَـكُـورًا وَلِـسَـانًـا ذَاكِـرًا
وَزَوْجَـةً صَـالِـحَـةً تُـعِـيـنُـهُ

عقده من قوله صلى الله عليه وسلم: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة».

(رواه الترمذي وحسنه)

ومن عقد المَثَلِ قول بعضهم:

---

(1) شرح عقود الجمان ـ ص 178.
(2) البقرة الآية: 282.
(3) شرح عقود الجمان ص 179.

قُـلْ لِمَنْ يَـطْلُبُ شَيْئـاً بَعْـدَ أنْ
فَـاتَ عَنْـهُ «الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنْ»

عقده من المثل المشهور الذي يضرب لكل من يطلب شيئاً بعد التفريط فيه في وقته حتى يفوت عنه إبَّانُ تحصيله.

وأما الاقتباس فهو أن يُضَمِّنَ الإنسان كلامه المنثور أو المنظوم شيئاً من القرآن أو من الحديث فقط، لا على وجه يشعر بالذي أخذ منه، فلا يكون فيه عزو بقال ونحوه، ولا يغتفر فيه إلا يسير التغيير لوزن ونحوه.

مثال الاقتباس من القرآن في النثر قول الحريري: «فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَهُوَ أقرَب»[1] حَتَّى أَنْشَدَ فَأَغْرَب»[2].

وقول عبد المؤمن الأصبهاني صاحب أطباق الذهب:[3] «فمن عاين تلون الليل والنهار لا يغتر بدهره، ومن علم أن الثرى مضجعه لا يمرح على ظهره، فياقوم لاتركضوا خيل الخيلاء في ميدان العرض، ءامنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض[4].

ومثال الاقتباس منه في الشعر، قول بعضهم:[5]

إنْ كُنْتِ أزْمَعْتِ عَلَى هَجْرِنَـا
مِنْ غَيْرِ مَاجُرْمٍ «فَصَبْرٌ جَمِيـل»

---

(1) النحل، الاية: 77.
(2) مقامات الحريري - ص 23.
(3) شرح عقود الجمان ص 175.
(4) الملك، الاية: 16.
(5) شرح السعد جـ 2 ص 143.

وَإنْ تَبدَّلْتَ بِنَا غَيْرَنَا
فـ «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»[1]

ومثال الاقتباس من الحديث في النثر قول الحريري:

«ثُمَّ إذَا كَانَتِ الأعْمَالُ بِالنِّيات، وَبِهَا انْعِقَادُ الْعُقُودِ الدِّينِيَات». [2]

وقوله أيضاً: «شاهت الوجوه، وقبح اللكع ومن يرجوه». [3]

اقتبس الأول من قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»[4] والثاني من قوله - يوم حنين - «شاهت الوجوه»[5] بعد أن رمى الكفار بكف من حصباء.

ومثال الاقتباس من الحديث في الشعر قول بعضهم:

دَمُ الشَّهِيدِ يَحْكِي
وَرْدًا بِخَدٍّ تُرْكِي
«اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ
وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ»

اقتبسه من قوله صلى الله عليه وسلم - في وصف الشهيد - «يجيء يوم القيامة وجرحه يدمى، اللون لون دم، والريح ريح المسك». [6]

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 173.
(2) مقامات الحرير ص 9.
(3) مقامات الحريري.
(4) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي والترمذي (التاج الجامع - 551.
(5) رواه الإمام أحمد والحاكم (فيض القدير جـ 4 ص 153).
(6) متفق عليه (رياض الصالحين - ص 463).

وغالب ماتقدم لا تغيير فيه، ومثال ماغيِّر يسيراً قول الشهاب الحجازي:

لاتَدُعُّ اليَتِيمَ يَوْمًا وَكُنْ فِي
شَأْنِهِ دَائِمًا رَءُوفًا رَحِيمًا

«أَرَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّيـ
ـنِ فَذَاكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَا»[1]

وكثرة مجيئه من العلماء الأجلة تؤذن بجوازه، فمن ذلك قول الإمام أبي القاسم الرافعي:

المُلْكُ لِلَّهِ الَّذِي عَنَتِ الْوُجُو
هُ لَهُ وَذَلَّتْ عِنْدَهُ الأَرْبَابُ

مُتَفَرِّدًا بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ تَجَاذَبُوهُ وَخَابُوا

دَعْهُمْ وَزَعْمَ الْمُلْكِ يَوْمَ غُرُورِهِمْ
فَـ«سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ»[2]

وقول شيخ الإسلام أبي الفضل ابن حجر:

خَاضَ الْعَوَاذِلُ فِي حَدِيثِ مَدَامِعِي
لَمَّا رَأَوْا كَالْبَحْرِ سُرْعَةَ سَيْرِهِ

فَحَبَسْتُهُ لِأَصُونَ سِرَّ هَوَاهُمُو
«حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»[3]

---

(1) سورة الماعون، الآيتان: 1، 2.

(2) سورة القمر، الآية: 26.

(3) النساء، الآية: 140، الأنعام، الآية: 68.

وقوله أيضاً:

يَـامَعْشَـرَ التُّجَـارِ أَمْـوَالُكُمُـو
أَدُّوا زَكَـاتَـهَـا وَلاَتُـكَـابِـرُوا
مِنْ قَبْـلِ أَنْ تُصِيبَكُمْ قَـارِعَـةٌ
لِأَنَّكُمْ «أَلْـهَـاكُمُ الـتَّكَـاثُـرُ»[1]

وقول العلامة السيوطي:[2]

أَيُّـهَـا الـسَّـائِـلُ قَـوْمًـا
مَـالَهُمْ فِي الْخَيْـرِ مَـذْهَبْ
اتْـرُكِ الـنَّـاسَ جَـمِـيـعًـا
«وَإِلَـى رَبِّـكَ فَـارْغَـبْ»[3]

وقوله أيضاً:[4]

لاَتَـكُنْ ظَـالِـمًـا وَلاَتَـرْضَ بِـالـظُّلْـ
ـمِ وأَنْـكِـرْ بِـكُـلِّ مَـا يُسْـتَـطَاعُ
يَـوْمَ يَـأْتِي الْحِسَـابُ «مَـالِـظَّلُومِ
مِنْ حَمِيمٍ وَلاشَفِيـعٍ يُـطَاعُ»[5]

فإن قلت: إن العقد والاقتباس قد حصل بينهما تشابه والتباس، فما الفرق بينهما؟

قلت في الجواب: الفرق بينهما من ثلاثة أوجه:

---

(1) التكاثر، الآية: 1.
(2) شرح عقود الجمان ص 174.
(3) سورة الشرح، الآية: 8.
(4) شرح عقود الجمان ص 174.
(5) سورة غافر، الآية: 18.

الأول: أن العقد عام لأنه يكون من القرآن، ومن الحديث ومن الأمثال، ومن الحكم، بل ومن كلام العلماء، كالمتون النثرية التي نظمها بعض المتأخرين، وأما الاقتباس فهو خاص؛ لأنه لا يكون إلاّ من القرآن والحديث لا غير، لقول صاحب الجوهر المكنون:[1]

وَالاقْتِبَاسُ أَنْ يُضَمَّنَ الْكَلَامْ
قُرْآنًا أَوْ حَدِيثَ سَيِّدِ الأَنَامْ

الثاني: أن العقد يغتفر فيه التغيير الكثير، وأما الاقتباس فلا يغتفر فيه إلاّ التغيير اليسير.

الثالث: وهو أحسنها ـ أن العقد لابد أن يكون فيه عزو بقال ونحوه، وأما الاقتباس فلا يكون فيه عزو أصلاً، وحينئذ فقول أبي منصور بن طاهر التميمي البغدادي:

يَامَنْ عَدَا ثُمَّ اعْتَدَى ثُمَّ اقْتَرَفْ
ثُمَّ انْتَهَى ثُمَّ ارْعَوَى ثُمَّ اعْتَرَفْ

اَبْشِرْ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ
«إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفْ»[2]

من باب العقد لا من باب الاقتباس، لا شتما له على العزو في قوله: ابشر بقول الله في آياته.

وقول الشهاب الحجازي:

مَاتَ ابْنُ مُوسَى وَهْوَ بَحْرٌ كَامِلٌ
فَهُنَا كُمُو جَمْعُ الْمَلَائِكِ مُشْتَرَكْ

(1) شرح الجوهر المكنون ص 172.
(2) سورة الأنفال، الآية: 38.

«يَـأْتِيكُمْ التَّـابُـوتُ فِيــهِ سَكِينَــةٌ
مِن رَبِّكُـمْ وَبَقِيَّــةٌ مِمَّـا تَـرَكَ»[1]

من باب الاقتباس لا من باب العقد؛ لعدم اشتماله على عزو بقال ونحوه، وقس على ذلك مايأتيك من الأشعار، واحكم عليه بما ذكرت لك من الاعتبار، فتفطن ولا تغفل.

وأما التضمين فهو أن يذكر الإنسان في شعره شيئاً من شعر غيره مع التنبيه على أنه من شعر الغير، إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء؛ لئلا يتهم بالسرقة وإلا فلا حاجة إلى التنبيه عنه، كقول الشهاب المنصوري في الخبز: [2]

إِلَيْــكِ اشْتِيَـاقِي يَـا كُنَافَـةُ زَائِــدُ
فَمَـالِي غِنَـاءٌ عَنْــكِ كَـلاً وَلاَصَبْــرُ
فَــلاَ زِلْتِ أَكْلِي كُـلَّ يَــوْمٍ وَلَيْلَةٍ
«وَلاَزَالَ مُنْهِـلاً بِجَرْعَـائِـكِ الْقَـطْرُ»

ضمن المصراع الثاني في البيت الثاني من قول الشاعر: [3]

أَلاَ يَـا اسْلَمِي يَـادَارَمَيَّ عَلَى الْبِـلاَ
وَلاَزَالَ مُنْهَــلاً بِجَرْعَــائِـكِ الْقَــطْرُ

ولا يضر فيه التغيير اليسير، كقول الحريري ـ متهكماً على يهودي فيه داء الثعلب في رأسه ـ: [4]

(1) سورة البقرة، الآية: 248.
(2) شرح عقود الجمان ـ ص 178.
(3) وهو ذو الرمة.
(4) شرح عقود الجمان ص 178.

أَقُولُ لِمَعْشَرٍ غَلِطُوا وَغَضُّوا
مِنَ الشَّيْخِ الرَّشِيدِ وَأَنْكَرُوهُ

هُوَ ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا
مَتَى يَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعرِفُوهُ

ضمن البيت الثاني من قول الشاعر:[1]

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا
مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

إلاّ أنه غيّره من التكلم إلى الغيبة.

وتضمين البيت كاملاً يسمى: استعانة؛ لأنه استعان بشعر غيره، وتضمين المصراع فما دونه يسمى: رفوا وإيداعاً، لأنه رفا شعره بشعر غيره وأودعه إياه، وهو من خصائص الشعر كالعقد الذي تقدم ذكره.

وأما التلميح - بتقديم اللام على الميم - من لمحهُ إذا نظر إليه، فهو أن يشير الإنسان في كلامه إلى قصة، أو شعر، أو مَثل من غير ذكره.

فالأول كقول بعضهم في غلام اسمه بدر:[2]

يَابَدْرُ أَهْلُكَ جَارُوا
وَعَلَّمُوكَ التَّجَرِّي

وَقَبَّحُوا لَكَ وَصْلِي
وَحَسَّنُوا لَكَ هَجْرِي

---

(1) وهو سحيم بن وثيل الرياحي.
(2) شرح عقود الجمان ص 180.

فَـلْيَـفْـعَـلُوا مَـا أَرَادُوا
لِأَنَّـهُـمْ أَهْـلُ بَـدْرِ

أشار به إلى قصة حاطب حين قال عمر بن الخطاب: دعني يارسول الله أقتل هذا المنافق، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - «لاتقتله لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم».

والثاني كقول بعضهم: [1]

لَعَمْـرٌ مَـعَ الـرَّمْضَـاءِ وَالنَّـارُ تَـلْتَـظِي
أَرَقُّ وَأَحْفَى مِنْـكَ فِي سَـاعَـةِ الكَـرْبِ

أشار به إلى البيت المشهور من قول بعضهم: [2]

الـمُسْتَجِيـرُ بِعَمْـرٍو عِنْـدَ كُـرْبَتِـهِ
كَـالْمُسْتَجِيـرِ مِنَ الـرَّمْـضَـاءِ بِـالنَّـارِ

والثالث: كقول بعضهم، لمن تعجل السيادة والتصدر، قبل أوانهما:

فَـإِنْ طَـالَـبْـتَ مَـايُـعْـظَـمْ
فَـإِنْ تَـعْـجَـلْ بِـهِ تُـحْـرَمْ[3]

أشار به إلى قولهم - في المثل - «من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه».

---

(1) وهو أبو تمام.
(2) لم أعثر على قائله.
(3) لم أعثر على قائله.

وماذكرته في تعريف التلميح هو ماأشار إليه صاحب الجوهر المكنون بقوله: [1]

إشَارَةٌ لِقِصَّةٍ شِعْرٍ مَثَلْ
مِنْ غَيْرِ ذِكْرِهِ فَتَلْمِيحٌ كَمَلْ

والحاصل أن الأمور التي توصل إليها جودة التركيب لمن أراد التلميح في الإنشاء ستة، ثلاثة يشترك فيها النظم والنثر، وهي الجناس، والاقتباس، والتلميح، وواحد يختص به النثر وهو الحل؛ لأنه نثر الشعر، واثنان يختص بهما النظم، وهما العقد لأنه ضد الحل، والتضمين لأنه فيه تظهر براعة الشعراء.

ولما فرغت من أصول الإنشاء، شرعت في بيان شروطه فقلت:

وَشَرْطُهُ إطِّلاَعُ كُلِّ رَاغِبِ
عَلَى أَسَالِيبِ رِجَالِ الأَدَبِ

وَخَلْوَةٌ فِي نُزْهَةٍ لِلْفِكْرِ
كَذَا هُدُوءُ الْجَوِّ فَافْهَمْ وَادْرِ

وَصَوْغُهُ فِي زَمَنِ النَّشَاطِ
عِنْدَ فَرَاغِ الْفِكْرِ وَانْبِسَاطِ

[وِأَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ فِيهِ تَابِعَا
إلَى الْمَعَانِي دُونَ عَكْسٍ فَاسْمَعَا

[وَذَا انْقِيَادٍ لِلْمَعَانِى دُونَمَا
عَسْفٍ وَاكْرَاه عَلَيْهَا دَائِمَا

كَذَا التَّدَرُّبُ عَلَيْهِ حَتَّى
يَكُونَ مِثْلَ الطَّبْعِ فِيهِ بَتَّا

---

(1) شرح الجوهر المكنون ص 173.

ضمير «وشرطه» يعود على الإنشاء، ولفظ شرط مفرد مضاف إلى معرفة فيعم ويكون بمعنى شروط؛ لأن جملة شروطه سبعة:

الأول: (اطلاع كل راغب) من إضافة المصدر إلى فاعله كقوله تعالى: ﴿ولولا دفاع الله الناس﴾[1] أي أن يطلع كل راغب في الإنشاء (على أساليب) أي طرق (رجال الأدب) ليحذو حذوهم ويسير على منوالهم، وينبغي له أن يحفظ نبذة من كلامهم، خصوصاً إذا أراد إنشاء الشعر، فإنه يتأكد في حقه الحفظ أكثر من مريد النثر، لأن من كان خالياً من المحفوظ، يكون نظمه قاصراً رديئاً، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلّا كثرة المحفوظ، فمن قل حفظه، أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال، يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم الملكة وترسخ:

(و) الشرط الثاني (خلوة) أي انفراد عن الناس (في نزهة للفكر) أي في مكان منزه للفكر.

(كذا) حال مما بعده (هدوء الجوّ) أي وهدوء الجوّ حالة كونه مثل ذلك، أي في كونه شرطاً ثالثاً، والمراد بهدوء الجوّ سكونه وخلوه من الأصوات المشوشة.

فهذان الشرطان للسلامة من التشويش؛ لأن الخلوة تحصل بها السلامة من التشويش على حاسة البصر، وهدوء الجو تحصل به السلامة من التشويش على حاسة السمع (فافهم وادر) تكملة للبيت.

(و) الشرط الرابع (صوغه) أي جمعه وتأليفه (في زمن النشاط)

---

(1) سورة البقرة، الآية: 251.

أي نشاط الأعضاء وخفتها؛ لأنها أغصان للقريحة، والقريحة أزهار في تلك الأغصان، فإذا نشطت الأغصان، نشطت فيها الأزهار وتفتحت وأثمرت، وإلا يبست في أكمامها ولم تثمر؛ فلذلك اشترط صوغه في زمن النشاط (عند فراغ الفكر) من الشواغل (وانبساط) أي انبساط الفكر وانشراحه.

قال بعض الأدباء: «ولا بد له من الخلوة، واستجادة المكان باشتماله على مثل المياه والأزهار، وفراغ الجو من الأصوات المشوشة؛ لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذّ السرور، ثم مع هذا كله، فشرطه أن يكون على جمام، أي راحة ونشاط؛ فذلك أجمع له وأنشط لقريحته»[1].

(و) الخامس (أن يكون اللفظ فيه) أي في الإنشاء (تابعاً إلى المعاني)؛ لأن المعاني مرادة لذاتها، والألفاظ مرادة لغيرها، والشأن في المراد لغيره، أن يكون تابعاً للمراد لذاته؛ لأنه شرط فيه، والشرط تابع للمشروط، (دون عكس) أي دون أن تكون المعاني تابعة للألفاظ، (فاسمعا) تكملة للبيت.

قال في آداب المنشىء: «ولابد أن يجعل الألفاظ تابعة للمعاني، دون العكس، لأن المعاني إذا تركبت على سجيتها، طلبت لأنفسها ألفاظاً تليق بها، فيحسن اللفظ والمعنى جميعاً، وأما جعل الألفاظ متكلفة والمعاني تابعة لها، فهو شأن من لهم شغف بإيراد شيء من المحسنات اللفظية، فيصرفون العناية إليها، ويجعلون الكلام كأنه غير مسوق لإفادة المعنى، فلا يبالون بخفاء الدلالات

---

(1) انظر مقدمة ابن خلدون ص 574.

وركاكة المعنى. انتهى من آداب المنشىء باختصار.[1]

(و) السادس أن يكون اللفظ (ذا) أي صاحب (انقياد) أي خضوع (للمعاني) إظهار في محل الإضمار للإيضاح، أي خاضعاً لها ومطيعاً (دونما) لفظ مازائدة بين المتضايفين، أي دون (عسف أي تعسف (واكراه) أي ودون إكراه (عليها) أي على المعاني (دائماً) لأن المعاني منازل للألفاظ على طريقة الماوردي التي تقدم ذكرها، وشأن النازل في محل أنه لا يستريح فيه ولا يرومه، إلاّ إذا كان لائقاً به، وإلا صار غير مستريح فيه، ونافراً له، وقلقاً منه.

قال العسكري - في كتاب الصناعتين -: «وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، فإذا لم تجد اللفظة واقعة في موقعها، صائرة إلى مستقرها، حالة في مركزها، متصلة بسلكها، بل وجدتها. قلقة في موضعها، نافرة عن مكانها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها[2]. انتهى المراد من كتاب الصناعتين وقال العلامة البستي في هذا المعنى:

إذَا انْقَادَ الْكَلاَمُ فَقُدْهُ عَفْواً
إلَى مَاتَشْتَهِيهِ مِنَ الْمعَانِي
وَلاَ تُكْرِهْ بَيَانَكَ إنْ تَأَبَّى
فَلاَ إكْرَاهَ فِي دِينِ الْبَيَانِ

(كذا) حال مما بعده، أي والشرط السابع (التدرب عليه) أي على الإنشاء، حالة كونه مثل ذلك، في كونه شرطاً لابد منه.

---

(1) نقلته من جواهر الأدب جـ 1 - ص 28 - 29.

(2) ص 152.

والتدرب ـ بالدال المهملة ـ هو التمرن على الشيء وممارسته، ومعالجته بجراءة وولوع ورغبة، حتى يطلع عليه ويعرفه ويعتاده، (حتى يكون) ذلك (مثل الطبع) الذي لا يتغير (فيه) أي فمن تمرن عليه (بَتًّا) أي قطعاً وجزماً لا شك فيه ولا ظن.

قال بعض الأدباء: «وخير مايعول عليه في الإنشاء هو التدرب والتمرن، على أن يستمر ذلك مدة طويلة، حتى يصير الإنشاء ملكة، فلا يجد فيه الطالب بعد ذلك أية صعوبة إذا رغب في الإنشاء، خطابة أو غيرها».

وقال ابن الأثير ـ في المثل السائر ـ: «من أحب أن يكون كاتباً، أو يكون عنده طبع مجيب، فعليه بحفظ كلام الأدباء، والتمرن والتدرب على الإلقاء، والإدمان على ذلك ليلاً ونهاراً مدة طويلة، حتى تصير له في الإنشاء ملكة ينشىء بها من غير تكلف». انتهى من المثل السائر باختصار.[1]

---

(1) انظر المثل السائر 108.

باب محاسن الإنشاء وعيوبه

مَحَاسِنُ الإِنْشَآءِ قُلْ وُضُوحُ
صَرَاحَةٌ جَزَالَةٌ تَنْقِيحُ
تَطَابُقٌ تَنَاسُقٌ عَلَى الدَّوَامْ
كَذَا سُهُولَةٌ لَهُ وَالانْسِجَامْ
تَأَنُّقٌ فِي الْبَدْءِ بِالْمَقَالِ
الْعَذْبِ أَوْ بَرَاعَةِ اسْتِهْلاَلِ
مَعَ اجْتِنَابِ كُلِّ مَا يُطَيِّرُ
وَكُلِّ مَا يَقْبُحُ أَوْ يُنَفِّرُ
كَذَا تَأَنُّقٌ لَدَى الْخِتَامْ
مَعْ ذِكْرِ مَا يُشْعِرُ بِالتَّمَامْ

لما فرغت من الباب الأول، الذي ذكرت فيه مواد الإنشاء وشروطه، شرعت في الباب الثاني، الذي ذكرت فيه محاسن الإنشاء وعيوبه.

فأما محاسن الإنشاء فقد أشرت إليها في هذه الأبيات الخمسة بقولي: (محاسن الإنشاء) جمع حُسْنٍ (قل) فعل أمر وفاعله مستتر فيه وجوباً تقديره أنت، والجملة الطلبية خبر المبتدأ على رأي الجمهور،

إلى خفاء المعنى في غير المسائل الخمسة التي استثناها النحاة وجمعها بعضهم في قوله:

وَمَرْجِعُ الضَّمِيرِ قَدْ تَأَخَّرَا
فِي خَمْسَةٍ لَاغَيْرُ فِيمَا اشْتَهَرَا
فِي بَابِ نِعْمَ وَتَنَازُعِ الْعَمَلْ
وَمُضْمَرِ الشَّأْنِ وَرُبَّ وَالْبَدَلْ

الخامس: اجتناب تشتيت الضمائر؛ لأنه يؤدي إلى خفاء معنى الكلام.

السادس: التعقيد اللفظي الناشيء عن كثرة التقديم والتأخير، والفصل بين المتلازمين، لأنه يؤدي إلى خفاء معنى الكلام.

السابع: التعقيد المعنوي الناشيء عن استعمال الكنايات الخفية، لأنه يؤدى إلى خفاء معنى الكلام.

فإن كان في الكلام شيء مما ذكر، فلا يكون متصفاً بالوضوح، بل يكون متصفاً بالغموض والخفاء.

وثانيها: (صراحة) وهي لغة الخلوص، قال في المصباح: «صرح الشيء - بالضم - صراحة، وصروحة خلص من تعلقات غيره، فهو صريح، وكل خالص صريح، ومنه القول الصريح، وهو الذي لايفتقر إلى اضمار أو تأويل، وصرح بما في نفسه، أخلصه للمعنى المراد على التفسير الأول، واذهب عنه احتمالات المجاز والتأويل على التفسير الثاني. انتهى باختصار.[1]

ولا يكون الإنشاء صريحاً إلاّ إذا كان خالصاً للمعنى المراد،

---

(1) انظر المصباح جـ 1 ـ ص 361.

ولا يحتمل سواه، بأن تكون مفرداته سالمة من التردد بين الحقيقة والمجاز، وتراكيبه سالمة من التردد بين الظاهر والمؤول، وجملهُ سالمة من التردد بين العطف والاستئناف، فإن كان فيه شيء من ذلك، فلا يكون متصفاً بالصراحة.

وثالثها: (جزالة) وهي لغة القوة والكثرة، قال في المختار: «اللفظ الجَزْل ضدّ الركيك الضعيف» وقال أيضاً: «عَطَاءٌ جَزْلٌ وجزيل [أي كثير] وأجزل له من العطاء أي أكْثَرَ». [1]

والمراد ـ هنا ـ أن يكون لفظ الإنشاء قوياً متيناً، دالاً على معان فخمة كثيرة.

وقال صاحب الجواهر: [2] الجزالة هي إبراز المعاني الشريفة، في معارض الألفاظ الأنيقة اللطيفة، كقول الشاعر الصابىء ـ المتوفى سنة 384 هـ.

لَكَ فِي المحَافِلِ مَنْطِقٌ يَشْفِي الجَوَى وَيَسُوغُ فِي أُذُنِ الأَدِيبِ سُلاَفُهُ

فَكَأَنَّ لَفْظَكَ لُؤْلُؤٌ مُتَنَخَّلٌ وَكَأَنَّمَا آذَانُنَا أَصْدَافُهُ

ورابعها: (تنقيح) وهو لغة تهذيب الكلام وتصفيته وتخليص جيده من رديئه، ويقال له أيضاً الضبط، وهو حذف فضول الكلام مع ترتيب الكلمات، ووضع كل كلمة في موضعها.

وفي الاصطلاح: قال صاحب الجواهر: [3] نقلا عن خزانة

---

(1) المختار ص 118.

(2) انظر جواهر الأدب جـ 1 ص 19 ـ 20.

(3) جواهر الأدب ـ جـ 1 ص 27.

الأدب، وزهـر الآداب ـ «هو عبـارة عن تـرداد النـظر في الكـلام بعـد جمعـه نظمـاً كان أو نثـراً، وتغيير مـايجب تغييـره، وحـذف مـا ينبغي حذفه، واصلاح مايتعين اصلاحه، وتحرير مايدق من معـانيه، وطـرح مـا يتجافى عن مضـاجـع الـرقـة من غليظ ألفـاظـه؛ لتشـرق شمـوس التهـذيب في سمـاء بـلاغتـه، وتـرشف الأسمـاع على الـطرب رقيق سلافته.

فإن الكلام إذا كان موصوفاً بـالمهذَّب، منعـوتاً بـالمنقَّح، علت رتبته ولو كانت معانيه غير مبتكرة.

وكل كلام قيل فيه: لو كان في موضع هذه الكلمة غيـرها، ولـو تقـدم هذا المتـأخر، أو تـأخر هـذا المتقدم، أو لـو تمم هـذا النقص بكذا، أو لو حذفت هذه اللفظة، أو لو اتضح هذا المقصد وسهل هذا المطلب، لكان الكلام أحسن، والمعنى أبين، كان ذلـك الكلام غير منتظم في سلك التهذيب.

وكان زهير بن أبي سلمى معروفاً بالتنقيح والتهذيب، وله قصائد تعـرف بالحـوليات، قيـل: إنه كـان ينظم القصيـدة في أربعة أشهـر، ويهـذبها وينقحهـا في أربعة أشهـر، ويعرضهـا على علماء قبيلتـه مدة أربعة أشهر.

ولهـذا كان عمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنـه ـ مع جـلالته في العلم وتقدمه في النقد، يقدمه على سائر الفحول من طبقته».

وخـامسهـا: (تـطابق) وهـو لغـة التـوافق، قـال في المختـار: «المـطابقة المـوافقة، والتـطابُقُ الاتفاق. وطـابق بين الشيئين جعلهما

على حَذْوٍ وَاحِدٍ وَأَلْزَقَهُمَا. وأطبقوا على الأمر أي اتَّفقوا عليه»[1].

والمراد - هنا - كون الألفاظ مناسبة للمعاني، ومطابقة لها وموافقة لحجمها، فلا تزيد عليها ولا تنقص، ويؤيده ماجاء في وصية أبي تمام لتلميذه البحتري، حيث قال له: «وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام»[2].

فقوله: على مقادير الأجسام هو عين التطابق.

وسادسها: (تناسق علي الدوام) وهو لغة تتابع الشيء على نظام واحد، قال في المختار: «النَّسَقُ بالتحريك ما جاء من الكلام على نظام واحد. والنَّسْقُ بالتسكين مصدر نَسَقَ الكلام إذا عَطَفَ بعضه على بعض، وبابه نَصَر، والتنسيق التنظيم»[3].

والمراد - هنا - كون ألفاظ الإنشاء متناسقة، أي منتظمة انتظاماً يجعلها كأنها متعانقة، لشدة الألفة بينها والارتباط، وهو من محاسن الإنشاء الراجعة إلى الاتفاق بين ألفاظه، وأما المطابقة التي تقدم ذكرها فهي من محاسنه الراجعة إلى الاتفاق بين اللفظ ومعناه.

وسابعها: سهولة وإليها أشرت بقولي: (كذا سهولة له) أي سهولة له حالة كونها كذلك، أي في كونها من المحاسن.

والسهولة لغة ضد الحزونة والصعوبة.

والمراد - هنا - سلامة الكلام من التعسف في السبك، بأن

---

(1) مختار الصحاح ص 412.
(2) جواهر الأدب جـ 1 ص 29.
(3) مختار الصحاح - ص 682.

يختار مَالَانَ منه كقول بهاء الدين زهير ـ في الأشواق ـ:

شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدُ
كَمَا عَلِمْتَ وأَزْيَدْ
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا
بِهِ ضَمِيرُكَ يَشْهَدْ

أو يختار ما سهل مأخذه، وخلا من اللبس والإشكال، كقول الأخطل في أحسن مايدخره الإنسان:

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِد
ذُخْراً يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ

قال بعض البلغاء:[1] «أحذركم من التقعير والتعمق في القول وعليكم بمحاسن الألفاظ والمعاني المستملحة، فإن المعنى المليح إذا كسى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، كان في قلب السامع أحلى، ولصدره أملأ، ولذلك قال البستي:

إِذَا انْقَادَ الْكَلَامُ فَقُدْهُ عَفْواً
إِلى مَاتَشْتَهِيهِ مِنَ الْمَعَانِى
وَلَا تُكْرِهْ بَيَانَكَ إِنْ تَأَبَّى
فَلَا إِكْرَاهَ فِي دِينِ الْبَيَانِ

وثامنها: الانسجام، وإليه أشرت بقولي: (والانسجام) وهو لغة جريان الماء.

وعند البلغاء والأدباء هو غاية السهولة، وضابطه أن يأتي الناثر أو

(1) جواهر الأدب ـ جـ 1 ص 19.

الناظم بكلام خال من التعقيد اللفظي والمعنوي، بسيطاً مفهوماً، رقيق الألفاظ، جليل المعنى، لا تكلف ولا تعسف فيه، يتحدر كتحدر الماء المنسجم، فيكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه، أن يسيل رقة، حتى تكون أغلب فقراته في النثر موزونة من غير قصد، وأبياته في النظم من قبيل المطرب، وربما دخلت في حيز المرقص، ولا يكون ذلك إلاّ ممن هو مطبوع على سلامة الذوق، وتوقد الفكر، وبراعة الإنشاء، وحسن الأساليب.

وتاسعها: (تأنق في البدء) أي في الابتداء، والتأنق لغة الإتقان والإحكام، قال في المصباح: «شيء أنيق مثل عجيب وزنا ومعنى، وتأنق في عمله أحكمه واتقنه». [1]

والتأنق في ابتداء الكلام، يكون إما (بالمقال العذب) وهو أن يجعل أول الكلام رقيقاً سهلاً، واضح المعاني، مناسباً للمقام، بحيث يجذب السامع مع الإصغاء؛ لأنه أول مايقرع السمع.

(أو) بذكر (براعة استهلال) وهي أن يأتي المتكلم في أول كلامه بما يدل على مقصوده، (مع اجتناب كل مايطيّر) بتشديد الياء الأخيرة، أي يصير السامع متطيراً منه (وكل مايقبح أو ينفر) قال السيوطي في شرح عقود الجمان: «ينبغي للمتكلم شاعراً أو كاتباً، أن يتأنق في الابتداء، ويبالغ في تحسينه بأعذب لفظ، وأجزله، وأرقه، وأسلسه، وأحسنه نظماً وسبكاً، لأنه أول مايقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلاّ أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن، ألاّ ترى إلى ابتداء امرىء القيس في تذكر

---

(1) المصباح المنير ـ ص 31.

الأحبة والمنازل، حيث قال: «قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ» فوقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد».

وقال أيضاً - في براعة الاستهلال - «من الابتداء الحسن نوع لطيف، هو أخص منه وأحسن، وهو مااشتمل على مايناسب الحال المُتَكَلَّمَ فيه، ويشير إلى ماسبق الكلام لأجله، ويسمى ذلك براعة الاستهلال، لأن المتكلم فهم غرضه من كلامه عند رفع صوته، والاستهلال هو رفع الصوت، كقول بعضهم في التهنئة:

بُشْرَى فَقَدْ أَنْجَزَ الإقْبَالُ مَاوَعَدَا
وَكَوْكَبُ السَّعْدِ فِي أُفْقِ العُلَى صَعَدَا

ومع ذلك يجب على المنشىء، أن يجتنب في الابتداء ما يتطيّر منه في المدح، وأن يتحاشى عن كل مايقبح، أو ينفر النفوس.

وقد وقع التطير من أشياء، فقد حكي أن جريراً أنشد لعبد الملك بن مروان قصيدته التي أولها:

«أَتَصْحُوا أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ. فقال له عبد الملك: بل فؤادك يابن الفاعلة.

وأنشد ذو الرمة لعبد الملك قصيدته التي أولها:

«مَابَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ». - وقد كان بعين عبد الملك رمص، فهي تدمع دائماً أبداً - فقال له: ماسؤالك عن هذا يابن الفاعلة، وأخرجه من عنده.

وأنشد أبو النجم لهشام بن عبد الملك قوله في الشمس:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ
كَأَنَّهَا فِي الْأُفُقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ

وقد كان هشام بن عبد الملك أحول، فأخرجه وأمر بسجنه، وأنشد البحتري ليوسف بن محمد قصيدته التي أولها:

لَكَ الْوَيْلُ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ آخِرُهُ

فقال له يوسف: بل لك الوليد والحرب يابليد.

ودخل اسحاق بن إبراهيم الموصلي على المعتصم ـ بعد أن فرغ من بناء قصره بالميدان ـ فأنشده القصيدة التي مطلعها:

يَادَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى وَمَحَاكِ
يَالَيْتَ شِعْرِي مَاالَّذِي أَبْلَاكِ

فتطيّر المعتصم من قبح هذا الابتداء، وأمر بهدم القصر على الفور. انتهى من شرح عقود الجمان باختصار.[1]

وقال شيخنا أحمد بن سعيد: «ومن جملة مايتطير منه افتتاح قصائد المدح والتهاني ومأشبههما بالنفي المحض، أو النهي، أو الاستفهام الإنكاري».

وقال في الجواهر: «اعلم أن الكتابة لها أركان لابد من إيداعها في كل كتاب بلاغي ذي شأن.

أولها: أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة، فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، والجدة التجديد والابتكار، أو بناء المطلع على مقصد الكتاب، لأن من حسن الافتتاح، أن تجعل مطلع الكلام

---

(1) انظر شرح عقود الجمان ـ ص 180 ـ 181.

من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناء فهناء، وإن كان عزاء فعزاء، وهكذا.

وفائدته أن يعرف من مبدإ الكلام المراد منه.

ومن أدب المطلع ألا يذكر فيه مايتطير منه أو يستقبح لا سيما إن كان في التهاني، فإنه يكون أشد قبحاً، وإنما يستعمل في الخطوب النازلة، والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلام في المديح مفتتحاً بشيء من ذلك، تطير منه سامعهُ:

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول مايطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدواعي إلى استماعه، وإلا فلا. انتهى من الجواهر باختصار.[1]

وعاشرها: التأنق في حالة الختام، وإليه أشرت بقولي: (كذا) حال مما بعده (تأنق لدى) أي في (الختام) أي التأنق في الختام، حالة كونه كذلك، أي في كونه من محاسن الإنشاء (مع) بسكون العين لغة في مع (ذكر مايشعر بالتمام).

قال في الجواهر[2]: «فعلى الشاعر والناثر، أن يتأنقا في الختام غاية التأنق، ويجودا فيه ماستطاعا، لأنه آخر ماينتهي إلى السمع، وآخر مايتردد صداه في الأذن، فهو كمقطع الشراب الذي ينتهي بشيء حلو راسب في الإناء، يكون آخر مايمر بالفم، ويعرض على الذوق، فيشعر منه بما لا يشعر من سواه.

ولذلك ينبغي أن يكون الختام متميزاً عن سائر الكلام قبله بنكتة

---

(1) انظر جواهر الأدب ـ جـ 1 ـ ص 23 ـ 39.
(2) جواهر الأدب ـ جـ 1 ص 39 ـ 40.

لطيفة، أو أسلوب رشيق، أو معنى بليغ، وأن يختار له من اللفظ، ماهو رقيق الحاشية، خفيف المحمل على السامع، سهل الورود على الطبع، ويتجافى به عن الإسهاب والتعقيد والثقل. وغير ذلك، وأن يكون مؤذناً بتمام الكلام، بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى، فلا ينتظر السامع شيئاً بعده، وإذا لم يكن المعنى دالًا بنفسه على التمام، حسن أن يدل عليه بكلام آخر، يذكر عقب الفراغ من سياقة الأغراض السابقة، وكثيراً مايختم الناثر بقوله: والسلام، أو بقوله: والله المستعان أو بقوله: والله أعلم، أو نحو ذلك.

وربما ختم بِمَثَلٍ، كختم الخوارزمي رسالته، بقوله: فبالصبر تنال العلى، وعند الصباح.. يحمد القوم السري.

ومن أمثلته في الشعر، قول ابن الوردي:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مَاأَحَبَّ وِصَالَكُمْ
وَغَايَةُ مَجْهُودِ المُقِلِّ سَلَامُ

ولذلك قال الأخضري في الجوهر المكنون: [1]

وَمِنْ سِمَاتِ الْحُسْنِ في الْخِتَامِ
ارْدَافُهُ بِمُشْعِرِ التَّمَامِ

وبه تم الكلام على محاسن الإنشاء.

ثم قلت:

عُيُوبُهُ تَنَافُرٌ وَخِشْيَهْ
وَهُجْنَةٌ سَهْوٌ عَنِ الْمَرْضِيَّهْ

---

(1) شرح الجوهر المكنون ـ ص 182.

جَفَافُ الإِسْهَابُ وَحْدَةُ السِّيَاقْ
رِكَّةُ تَعْقِيدُ وَتَكْرَارُ يُرَاقْ

ولما فرغت من محاسن الإنشاء، شرعت في بيان عيوبه، فقلت: (عيوبه) أي الإنشاء عشرة:

أولها: (تنافر) سواء كان في كل كلمة على حداها؛ لتنافر حروفها، نحو: الخعخع، والعسجد، ومستشزرات، أو في الكلام؛ لتنافر كلماته عند اجتماعها، نحو: بيت شاعر الجن الذي صاح على حرب بن أمية، حتى مات، ثم جاء لأهله وأخبرهم عنه بقوله:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ
وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْر

وثانيها: (وحشية) بالياء نسبة لما تُسْتَوْحشُ منه النفوس؛ لغرابته كتكأكتم بمعنى اجتمعتم، وافرنقعوا بمعنى انصرفوا.

وهذان العيبان ضد الفصاحة؛ لأن كل مافيه تنافر أو غرابة ليس بفصيح.

وقد حكى عن صفى الدين الحلى أن بعض الفضلاء أطلع على ديوانه، فقال: لاعيب فيه سوى أنه خال من الألفاظ العربية، فأجابه الصفى بقوله:

إنَّمَا الْحَيْزَبُونُ وَالدَّرْدَبِيسُ
وَالطَّخَا وَالنُّقَاخُ وَالْعَلْطَبِيسُ
لُغَةٌ تَنْفُرُ الْمَسَامِعُ مِنْهَا
حِينَ تُرْوَى وَتَشْمَئِزُ النُّفُوسُ

وَقَبِيحٌ أَنْ يُسْلَكَ النَّافِرُ الْوَحْـ
ـشِيُّ مِنْهَا وَيُتْرَكَ الْمَأْنُوسُ
إِنَّ خَيْرَ الأَلْفَاظِ مَا طَرِبَ السَّا
مِعُ مِنْهُ وَطَابَ فِيهِ الْجَلِيسُ

(و) ثالثها (هجنة) قال في المصباح: «الهجنة في الكلام العيب والقبح».

والمراد - هنا - أن يكون اللفظ سخيفاً، والمعنى مستقبحاً، سواء كان القبح عاماً في جميع الموضوع، كقول بعضهم:

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهُ بَصَلاً
غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلْ

أو كان خاصاً بالابتداء، وهي الأمور التي يتطير منها في ابتداء الكلام، مثل: قول جرير - لعبد الملك: «أتصحو أم فؤادك غير صاح» كما تقدم.

فالبصل إنما استقبح في البيت السابق؛ لأن المقصود رائحته، وهي خبيثة بدليل أنه لم يستقبح في قول ابن الوردي:

وَكَذَاكَ الْوَرْدُ مِنْ شَوْكٍ وَمَا
يَخْرُجُ النَّرْجِسُ إِلاَّ مِنْ بَصَلْ

لأن المقصود ماينشأ عنه، وهو النرجس الطيب الرائحة، وكذلك الشطر الذي أتى به جرير، إنما استقبحه عبد الملك؛ لأنه جاء به في مطلع القصيدة، بدليل أنه لو أتى به في غير مطلعها لما استقبحه، بل ربما استحسنه منه، خصوصاً إذا أتى قبله بما يقتضي الاستفهام الذي جاء فيه.

ومن هنا يتضح لنا أمران:

الأول: أن الكلمة الواحدة قد تكون مستحسنة في موطن، ومستقبحة في موطن آخر.

الثاني: أن الاستحسان ليس شرطاً في فصاحة الكلمة، وإلا لزم أن تكون الكلمة الواحدة فصيحة بالنسبة للموطن الذي استحسنت فيه، وغير فصيحة بالنسبة للموطن الذي استقبحت فيه. وهو تناقض لا يقبله العقل، بل الكلمة إذا سلمت من التنافر والغرابة وخلف القياس الصرفي، ينبغي أن تكون فصيحة، سواء كانت حسنة أو قبيحة، وهو مذهب الجمهور، تبعاً لابن الأثير، خلافا للهاشمي التابع للجاحظ، وعليه فالهجنة من العيوب التي هي ضد استحسان الكلمة لا ضد فصاحتها.

نعم إن اجتمع في الكلمة قبح وغرابة، تكون مستهجنة لقبحها، وغير فصيحة لغرابتها، كقول الشاعر:

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ
إذا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَا

فالابتشاك في كلامه بمعنى الكذب، وقد اجتمع فيه القبح والغرابة، فهو مستهجن لقبحه، وغير فصيح لغرابته.

ورابعها: (سهو عن المرضية) أي سهو عن الطريق التي رضيها الله للناس ديناً، وهي طريق الإسلام، وعرفه بعضهم: بأنه عبارة عن ضعف البصر بمواقع الكلام، كأن يأتي المنشىء بما ينافي عقائد الإيمان، أو قواعد الإسلام، كقول المتنبي - في تشبيه ممدوحه بالله تعالى وهو كفر بدون شك ولاريب:

تَـتَـقَـاصَـرُ الأَفْـهَـامُ عَـنْ إِدْرَاكِـهِ
مِثْـلُ الَّـذِي الأَفْـلاَكُ مِنْـهُ وَالُـدُّنَـا[1]

وخـامسها: (جفـاف) وهو الاختصـار الشديـد المخـل، كقـول الحارث بن حلزة ـ من شعراء القرن الثالث الهجري:

وَالْـعَـيْشُ خَـيـرٌ فِـي ظِـلاَ
لِ الـنُّـوْكِ مِـمَّـنْ عَـاشَ كَـدًّا

وسـادسها: (الإسهـاب) وهو الإطـالة الـزائدة المملة في شـرح المادة، والعدول إلى الحشو، كقول بعضهم:

أَغْنِى فَتًى لَمْ تَـذُرُّ الشَّـمْسُ طَـالِـعَـةً
يَـوْمًـا مِنَ الـدَّهْـرِ إِلاَّ ضَـرَّ أَوْ نَفَـعَـا

ومنه كثرة توارد العوامـل، على معمول واحـد، كقول بعضهم: «أقسم لا أعوذ أقوم أخطب فيكم».

وكـذلك كثـرة الجمل الاعتـراضية، نحـو: زيد ـ بـارك الله فيـه ووفقه وأعانه ونجَّحه ـ مجتهدٌ.

وكذلك كثرة تتابع الإضافـات، نحو: غـلام ابن خال أبي أمـك قد مات.

وسابعها: (وحدة السياق) وهي التزام أسلوب واحد من التعبير، وطريقة واحـدة من التركيب، بحيث تكـون للأذهـان كلالا، وللقلوب ملالا، وهي تدل على أن المنشىء ركيك، وقليل العلم والفهم.

وثـامنهـا: (ركـة) بـدون تنـوين؛ لضـرورة الـوزن، وهي لغـة

(1) ديوان المتنبي ـ جـ4 ـ ص 201.

الضعف، قال في المختار؛ رَكَّ الشَّيْءُ بالكسر رِكَّةً وَرَكَاكَةً رَقَّ وَضَعُفَ فهو رَكِيكٌ.[1]

وقد تقدم في الجزالة أنه قال: اللفظ الجزل ضد الركيك. فتكون الركة ضد الجزالة.

والمراد بها ـ هنا ـ أن يكون الكلام رثَّ الألفاظ والتركيب بحيث يكون لا فرق بينه وبين الألفاظ والتراكيب التي تنطق بها العوام، أو يكون فيه ضعف تأليف، بسبب مخالفته للقياس الصرفي، كالفك في محل الإدغام نحو قول أبي النجم «الحمد لله العلي الأجلل»، وكجمع أفعل فعلاء، جمع مذكر سالماً في قول بعضهم:

فَمَاوَجَدَتْ نِسَاءُ بَنِي تَمِيمٍ
حَلَائِلَ أُسْوَدِينَ وَأَحْمَرِينَ

وكجمع رَبْعٍ وَبَلَدٍ على أَفْعُلٍ في قول الأمين بن هارون الرشيد للجارية التي وجدها متخلفة عن الجواري، ونظر إليها فأعجبته:

يَاقَاعِدَهْ فِي الأَرْبُعِ
مَامِثْلُكِ فِي الأَبْلُدِ

أو بسبب مخالفته للقياس النحوي، كتأخير أخص الضميرين المتصلين، مع وجوب تقديمه في نحو قولك: الدرهم اعطيتهوك. وكتأخير ماله صدر الكلام، من أدوات الشرط والاستفهام، وكالإخبار عن كان بلفظ كان، وكالتصريح بالكون المطلق الذي يجب حذفه،

---

(1) مختار الصحاح ـ ص 276.

(2) بيت مشهور قائله الأعور الكلبي.

إذا وقـع صفـة أو صلة أو خبـراً أو حـالاً، وقـد اجتمعـا في قـول المتنبيء.[1]

إنْ كَـانَ مِـثْـلُكَ كَـانَ أوْهُـوَ كَـائِـنٌ
فَـبَـرِئْـتُ حِـيـنَـئِـذٍ مِـنَ الإسْـلاَمِ

وكالإخبار عن صار ومافي معناها بالجملة الماضـوية، وكتقـديم أجمع على كل، والعين على النفس في التوكيد، وما أشبه ذلك.

وتاسعها: (تعقيد) وهو نوعان: لفظي، ومعنوي.

فاللفظي: هو أن يكون الكـلام غير ظـاهر الـدلالة على المعنى المراد؛ لخلل واقع في نظمه وتركيبه، بسبب كثـرة التقديم والتـأخير، والفصل بين المتلازمين بأجنبي، وغير ذلك، مما يوجب صعوبـة فهم المعنى المراد، كقول الفـرزدق - في مدح إبـراهيم المخزومي، خـال هشام بن عبد الملك:

وَمَـا مِـثْلُهُ فِـي النَّـاسِ إلاَّ مُـمَلَّكـاً
أبُـو أمِّـهِ حَـيٌّ أبُـوهُ يُـقَـارِبُـهْ

وبيان ذلك: أن مـا: نافيـة حجازيـة أو تميمية، ومثله: بـالرفـع اسم ما، أو مرفـوع بالابتـداء، وضميره عائد على إبـراهيم المخزومي الممدوح، وحي: بدل من مثله، وقـد فصل بينهمـا بكثير كمـا ترى. وجملة يقـاربه: صفـة لحي، وقـد فصـل بينهمـا بقـولـه: أبـوه، وفي الناس: متعلق بمحذوف خبر ما، على أنها حجازيـة، وخبر المبتـدأ، على أنهـا تميمية، وإلا مملكـاً: بالنصب على الاستثنـاء من حي، أو من فاعل يقاربه، وفيـه تقديم المستثنى على المستثنى منـه، على كلا

---

(1) ديوان المتنبي - جـ 4 - ص 11.

الاحتمالين، وأبو أمه: مبتدأ، ومضاف إليه، وضمير أمه: عائد على المملك الذي هو ابن أخت الممدوح، وأبوه: خبر عن قوله: أبو أمه، وقد فصل بينهما بقوله: حي، وبذلك حصل التعقيد.

والمعنى على سبيل التفصيل والترتيب: ما مثل إبراهيم المخزومي حي - أي أحد - يقاربه - أي مقارب له - في الفضائل موجودًا، أو موجودٌ في الناس، إلا رجلاً مملكاً - أي أعطاه الله الملك - يدعى هشاماً، أبو أم الملك هو أبو ذلك الرجل الممدوح.

وعلى سبيل الإجمال: إبراهيم المخزومي لا يماثله في الفضائل، إلا ابن اخته هشام بن عبد الملك.

والتعقيد المعنوي: هو أن يكون انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى الكنائي المقصود من اللفظ، غيرَ ظاهر، كقول العباس بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا
وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

وبيان ذلك: أنه جعل سكب الدموع كناية عما يوجبه فراق الأحبة من الكآبة والحزن، وقد أصاب؛ لأن الانتقال من سكب الدموع إلى الكآبة والحزن ظاهر، لوجود المناسبة، فيكنى به عنه، لكنه جعل جمود العين كناية عما يوجبه تلاقي الأحبة من الفرح والسرور، وقد أخطأ، لأن الانتقال من جمود العين إلى الفرح والسرور غير ظاهر، لعدم وجود المناسبة، فلا يكنى به عنهما، ولو قال: لتسعداء، بدل لتجمدا؛ لظهرت الكناية؛ لأن الانتقال من السعادة إلى الفرح والسرور ظاهر، فيكنى بالسعادة عنهما.

والتعقيد المعنوي لا يميزه إلاّ علم البيان دون غيره؛ لأنه من باب الكناية، كما لايخفى.

(و) عاشرها: (تكرار يراق) بالبناء للمجهول، والجملة صفة لتكرار، أي تكرار مراق ومرفوض؛ لكراهة السمع له، وهو ماكان لغير توكيد. وضابطه: هو ماوقع بعد فصل يسير، بدون ترتيب شيء عليه.

فخرج بقولنا: «بعد فصل» تكرار التوكيد، سواء كان في الاسم نحو: «أخاك أخاك إن من لا أخاً له»[1]، أو في الفعل نحو: «أتاك أتاك اللاحقون، احبس احبس»[2]، أو في الحرف نحو: «لا لا أبوح بحب بثنة إنها»[3]، وسواء جيء به لقصد التقرير كما مثلنا، أو لطلب الإصغاء، كما كان يفعل النبي - صلى الله عليه وسلم - في خطبه، فقد ورد أنه كان كثيراً مايقول: «صبَّحكم ومسَّاكم» عدة مرات في أول خطبه لطلب الإصغاء.

وخرج بقولنا: يسير، ماجاء بعد فصل كثير، فإنه لا يراق ولا يعد عيباً من عيوب الإنشاء؛ لوقوعه في القرآن، فقد كرر الله فيه قوله: **﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾** عدة مرات في سورة البقرة[4]، لكن بعد فصل كثير.

وخرج بقولنا: من غير ترتيب شيء عليه، التكرار لأجل ترتيب مابعده عليه، فإنه لا يراق ولا يعد عيباً من عيوب الإنشاء، لوقوعه في القرآن أيضاً، فقد كرر الله تعالى قوله: **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**

---

(1) هذا صدر بيت وعجزه: «كساع إلى الهيجاء بغير سلاح».
(2) هذا عجز بيت وصدره: «فأين إلى أين النجاة ببغلتي».
(3) هذا صدر بيت وعجزه: «أخذت عليَّ مواثقاً وعهوداً».
(4) سورة البقرة، الآيات: 40، 47، 122.

إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن، وكرر قوله: ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ عشر مرات في سورة المرسلات، وكل ذلك للترتيب الذي نزه القرآن عن وصمة العيب فتأمل.

ثم قلت:

تكملة في طبقاته وأقسامه

وَطَبَقَاتُهُ ثَلاَثٌ لاَئِقَهْ
سُفْلَى وَوُسْطَى ثُمَّ عُلْيَا فَآئِقَهْ

ولما فرغت من عيوب الإنشاء، شرعت في بيان طبقاته فقلت: (وطبقاته) أي الإنشاء (ثلاث) لا رابع لها، وكلها (لائقة) وحسنة:

الأولى: (سفلى) ومرجعها إلى الإنشاء الساذج، وهو ماعرى عن رقة المعاني، وجزالة الألفاظ، والتأنق في التعبير، فهو بالكلام العادي أشبه؛ لسهولة مأخذه، وقرب مورده، ويستعمل في المحافل العمومية، ليقرب منال المعاني على جمهور السامعين، وفي المقالات والتآليف العلمية، وتقرير الدروس، لينصرف الذهن إلى أخذ المعنى، وليس دونه حائل من جهة العبارة؛ وفي المكاتبات الأهلية، والرحلات والأخبار التاريخية، وماأشبه ذلك، والذي اشتهر بالإنشاء الساذج السيوطي والماوردي والغزالي وابن الأثير وأبو الفرج الأصبهاني وأبو الفداء.

(و) **الثانية**: (وسطى) ومرجعها إلى الإنشاء الأنيق، وهو ماتوسط بين الإنشاء الساذج والعالي، فيأخذ من الساذج جلاءه وسلامته، ومن العالي رونقه ورشاقته، ويصلح في مراسلات ذوي

المراتب، وفي الروايات المنمَّقة، والأوصاف المسهبة، وفي خطب المحافل، وما أشبه ذلك، والذي اشتهر بالإنشاء الأنيق الثعالبي وابن خلكان وابن خلدون والطبري والفخري وابن المعتز والبها زهير وابن المقفع والمسعودي.

(ثم) بمعنى الواو، أي والثالثة: (عليا فائقة) ومرجعها إلى الإنشاء العالي، وهو ماشحن بغرر الألفاظ، وتعلق بأهداب المجاز، ولطائف التخيلات، وبدائع التشابيه، فيفتن ببراعته العقول، ويسحر برونقه الألباب، ويصلح في الترسل بين بلغاء الكتّاب، وفي المجالس الأدبية، وديباجة بعض التصانيف، وفي المناظرات والمقامات، وما أشبه ذلك من المواضع التي من شأنها الحماسة وتحريك العواطف.

والذي اشتهر بالإنشاء العالي الحريري والهمذاني والمعري وجرير وأبوتمام والبحتري والمتنبي وابن خاقان والعتبي والفارضي.

ثم اعلم أن طبقات الإنشاء كثيراً ماتختلط ببعضها فيصعب تعيين طبقتها، فربما جاء في القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث، لا يميزها إلاّ الناقد البصير. انتهى من تعليق الهاشمي على جواهر الأدب.[1]

ولما فرغت من طبقاته، شرعت في بيان انقسامه إلى شعر ونثر، فقلت:

وَهْوَ إلَى نَثْرٍ وَشِعْرٍ يَنْقَسِمْ
....

(1) جواهر الأدب ـ جـ 1 ـ 21 ـ 22.

أعلم أن كلام العرب الذي يخرج من ألسنتهم يدور على فنين: فن الشعر المنظم؛ وهو الكلام المقفى الموزون بأوزان مخصوصة.

وفن النثر: وهو الكلام الغير الموزون.

فأما الشعر فمنه المدح، ومنه الهجاء، ومنه الرثاء، ومنه غير ذلك.

وأما النثر فمنه مايؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل قطعتين منه قافية واحدة، ويسمى سجعاً، وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن تكون القطعتان متساويتين، لا تزيد إحداهما على الأخرى، كقوله تعالى: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنتهر**﴾[1]. وهو أشرف السجع منزلة، للاعتدال الذي فيه.

والقسم الثاني: أن تكون القطعة الثانية أطول من الأولى، طولاً لا يخرج بها عن الاعتدال خروجاً كثيراً، فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً، فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا**﴾[2]. فالفقرة الأولى ثمان لفظات، والثانية والثالثة تسع تسع.

ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاث فقرات، فإن الفقرتين الأوليين تحسبان في عدة واحدة، ثم تأتي الثالثة فينبغي أن تكون طويلة طولاً لايزيدها عليهما، وقد تكون الثلاث متساويات،

---

(1) سورة الضحى، الآية: 9، 10.

(2) سورة الفرقان، الآيتان: 12، 13.

كقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. (1)

والقسم الثالث: أن تكون الفقرة الثانية أقصر من الأولى، وهو عيب فاحش.

ويقابل السجع، النثر المرسل، وهو مايؤتى به قِطَعًا من غير تقيّد بقافية ولا غيرها، وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء، بل يرسل إرسالاً من غير قيد. انتهى من المثل السائر باختصار. (2)

ولما فرغت من انقسام الإنشاء إلى شعر ونثر، شرعت في بيان الطرق الموصلة إليه، فقلت:

....

وَلَهُمَا طُرُقٌ ....

أي للشعر والنثر طرق توصل إليهما، والمراد بالجمع هنا مافوق الواحد؛ لأنهما طريقان لا غير:

الأولى: طريق حل الشعر: ويقال لها: نثر الشعر وبعضهم قال: هي شرح أبيات الشاعر، وبيان مراميه، وأغراضه، ومعاني ألفاظه، وخيرما يعول عليه في نثر الشعر هو التدرب والتمرن، على أن يستمر ذلك مدة طويلة، حتى يصير نثر الشعر عند الطالب ملكة، فلا يجد بعد ذلك أية صعوبة فيه.

وقد تقدم بعض الكلام على حل الشعر، وهناك وعدنا بإعادة

---

(1) سورة الواقعة، الآيات: 28، 29، 30.

(2) انظر ج 1 ص 255 ـ 256 ـ ص 257.

الكلام عليه هنا بعبارة أوسع، ولذلك نقول: حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول منها: وهو أدناها مرتبة ـ أن يأخذ الطالب بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة، وهو نظير من أخذ عقداً قد أتقن نظمه، وأحسن تأليفه، فبدده وأوهاه، وهو عيب فاحش، ويكون صاحبه مشهوراً بالسرقة، فيقال: هذا شعر فلان بعينه؛ لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء.

وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين، فجاء حله مستهجناً في قول بعضهم: [1]

وَأَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا
تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّى لِأُبْصِرَ قَصْدَهُ
وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

حيث قال: «إن نثر هذين البيتين هكذا: كم لقيتُ أَلَدَّ ذا حَنَقٍ كأنه ينظر إلى الكواكب من عَلٍ، وتغلي عداوةُ صدره في مرجل فكويتُهُ فوق ناظرِيْهِ حتى انكب على فمه ويديه».

فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن، وطلاوة النظم لا غير. [2]

ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه، فحينئذ يعذر

---

(1) البيتان لربيعة بن مقروم الطبي.

(2) انظر المثل السائر ـ جـ 1 ص 103.

نـاثره، إذا أتى بـذلك اللفظ، وكـذلك الأمثـال السـائـرة فإنـه لابد من ذكرها على ماجاءت في الشعر.

وأما القسم الثاني وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة:

فهو أن ينثر المعنى المنظوم، ببعض ألفاظـه، ويعبر عن البعض بألفاظ أُخـر، وهناك تـظهر الصنعـة في المماثلة والمشـابهة، ومؤاخـاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة، فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعر مجيـد، قد نقحه وصحَّحه، فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة، ولا يخفى مافي ذلك من الانتصاب للقدْح، والاستهداف للطعن.

والـطريق المسلوك إلى هـذا القسم أن تـأخـذ بعض بيت من الأبيات الشعرية، وهو أحسن مافيه ثم تماثله.

وسأورد هاهنا مثالاً واحـداً، ليكون قـدوة للمتعلم، فأقـول: قد ورد هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له:

حَـذَّاءَ تَـمْـلأُ كُـلَّ أُذْنٍ حِـكْـمَـةً
وَبَـلاَغَـةً وَتُـدِرُّ كُـلَّ وَرِيـدِ

فقوله: «تملأ كل أذن حكمـة» من الكلام الحسن، وهـو أحسن ما في البيت، فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلابد من استعمـال لفظه بعينه، لأنه في الغاية القصوى من الفصاحـة والبلاغـة، فعليك حينئـذ أن تؤاخيه بمثله، وهو عسير جداً، وأصعب من نثر الشعر بغير لفظه، لأنه مسلك ضيق، لما فيه من التعرض لمماثلة ماهـو في غايـة الحسن والجودة.

وأمـا نثر الشعـر بغير لفـظه، فيتصرف فيـه ناثـره على حسب ما يراه، ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته.

القسم الثالث من أقسام الحل، وهو أعلى من القسمين الأولين:

وهو أن يأخذ المعنى، ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه، وفيه يتبين حذق الصائغ في صياغته، ويعلم مقدار تصرفه في صناعته، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية، وإلاّ أحسن التصرف، وأتقى التأليف.

واعلم أن من أبيات الشعر مايتسع المجال لنثاره، فيورده بضروب من العبارات، وهو شبيه بالمسائل السيالة في الحساب، التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة، ومنها مايضيق فيه المجال حتى لا يكاد الماهر في هذه الصناعة أن يخرج من ذلك اللفظ، وإنما يكون هذا لعدم النظير.

فأما مايتسع المجال في نثره فكقول أبي الطيب المتنبي:

لاَتَعْذُلِ الْمشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ
حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

فقد نثره بعضهم بقوله: «لا تعذل المحب فيما يهواه، حتى تطوى القلب على ماطواه» ونثره غيره بقوله: «إذا اختلفت العينان في النظر، صار العذل ضرباً من الهذر».

وأما مايضيق فيه المجال، ويعسر على الناثر تبديل ألفاظه فكقول أبي تمام:

تَرَدَّى ثِيَابَ الْموْتِ حُمْراً فما أَتَى
لَهَا اللَّيْلُ إلاَّ وهي مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ

فأبو تمام قصد المؤاخاة في ذكر أثواب الشهيد بين اللون

الأحمر واللون الأخضر، فأخبر أن الشهيد في حال خروج روحه يرتدي أثواب الموت حمراً من الدم، ولكن لا يأتي عليها الليل إلاّ وهي من السندس الأخضر من أثواب الجنة.

وهذا البيت لا يمكن تبديل ألفاظه، وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فك نظامه؛ لأنه يتصدى لنثره بألفاظه، فإن كان عنده قوة تصرف وبسط عبارة، أتى به حسناً رائقاً، وإلاّ فلا.

وقد قال بعضهم في نثره: «لم تَكْسُهُ المنايا نَسْجَ شِفَارِهَا، حَتَّى كَسَتْهُ الجنةُ نَسْجَ شِعَارِهَا، فَبُدِّلَ أَحْمَرُ ثَوْبِهِ بِأَخْضَرِهِ، وَكَأْسُ حِمَامِهِ بِكَأْسِ كَوْثَرِهِ».

وحيث انتهى بنا الكلام إلى هنا في التنبيه على نثر الشعر وكيفية نثره، وذكر مايسهل منه وما يعسر، فَلْنَتْبَعْ ذلك بقول كلى في هذا الباب، فنقول:

من أحب أن يكون كاتباً أو يكون عنده طبع مجيب، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته، وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد، فينثره بيتاً بيتاً على التوالي، ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها، فإنه لايستطيع إلاّ ذلك، وإذا تمرَّنت نفسه وتدرَّب خاطره، ارتفع عن هذه الدرجة، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده. ثم يرتفع عن ذلك فيكسوه ضروباً من العبارات المختلفة، وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعاني لقاح، فسينتج منها معاني غير تلك المعاني، ويكثر الإدمان على ذلك ليلاً ونهاراً، مدة طويلة حتى تصير له ملكة في الإنشاء، فإذا كتب بعد

ذلك كتاباً، أو خطبة تدفقت المعاني في أثناء كلامه، وجاءت ألفاظه معسولة، وكانت عليها جدة، حتى تكاد ترقص رقصاً، وهذا شيء خبرناه بالتجربة، «ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير». انتهى من المثل السائر باختصار.[1]

(1) انظر المثل السائر - جـ 1 ص 103 - 109 .

الطريقة الثانية
إلى تعلم الكتابة طريق الاطلاع والحفظ

وهي على ثلاث شعب:

الأولى: أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني، ثم يحذو حذوهم، وهي أدنى الطبقات عندهم.

الثانية: أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة، إما في تحسين ألفاظ، أو في تحسين معان، وهذه هي الطبقة الوسطى، وهي أعلى من التي قبلها.

الثالثة: أن لا يتصفح كتابة المتقدمين، ولا يطلع على شيء منها، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم، وعدة من دواوين فحول الشعراء، ممن غلب على شعرهم الإجادة في المعاني والألفاظ، ثم يأخذ في الاقتباس، فيقوم ويقع، ويخطىء ويصيب، ويضل ويهتدى، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه، واجدر بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها، وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد، وصاحبها يعد إماماً في فن الكتابة، إلاّ أنها وعرة جداً، ولا يستطيعها إلاّ من رزقه الله لساناً هَمَّامًا، وخاطرًا رَقَّامًا.

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والشعر، بحيث إنه لا ينشىء كتاباً إلاّ من ذلك، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه، مفتش عن دفائنه، وقَلَّبَهُ ظهرًا لبطن، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف، فيما ينشئه من عند نفسه، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية. انتهى من المثل السائر باختصار.[1]

ولما فرغت من الطريق التي توصل إلى صنعة الكتابة، شرعت في بيان السير المنتظم في التوصل إليها فقلت:

،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،

،،،،،،،،،،،،،،،،،،، وَسَيْرٌ مُنْتَظِمْ

أي ولهما سير منتظم لابد من اتباعه في تعاطي الإنشاء نظماً ونثراً.

قال في كتاب الصناعتين: «إذا أردت أن تضع كلاماً فأخطر معانيه ببالك وتنق له كرائم الألفاظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها، وأعمله مادمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور والملال، فأمسك، فإن الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الري، وتنال أربك من المنفعة، فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك عناؤها.

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد

---

(1) انظر المثل السائر - جـ 1 ص 100 - 101.

والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاودة.

وإياك والتوعر، فإنه يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريماً، فليلتمس له لفظاً كريماً فإن من حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف، فإذا لم تجد اللفظة واقعة في موقعها، صائرة إلى مستقرها، حالة في مركزها، متصلة بسلكها، بل وجدتها قلقة في موضعها، نافرة عن مكانها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بذلك أحد، وإن تكلفته ولم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لشأنك بصيراً، عابك من أنت أقل عيباً منه، وزَرَي عليك من هو دونك.

فإن لم تسمح لك الطبيعة بنظم الكلام في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إحالة الفكرة، فلا تعجل، ودعه سحابة يومك ولا تضجر، وأمهله سواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك، فإنك لاتعدم الإجابة والمواتاة، فإن تمنع عليك بعد ذلك مع ترويج الخاطر، وطول الإمهال، فتحول من هذه الصناعة، إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك، فإنك لم تشتهها إلاّ وبينكما تجانس، والشيء لا يحن إلاّ إلى ماشاكله.

وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني، على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين، على أقدار الحالات. انتهى من كتاب الصناعتين باختصار. [1]

---

(1) انظر كتاب الصناعتين ص 102 ـ 153.

ولما فرغت من كيفية السير في الإنشاء، شرعت في بيان الزمن الذي يكون للجمع والتهذيب، فقلت:

وَزَمَنٌ لِلْجَمْعِ وَالتَّهْذِيبِ

....

أي وللشعر والنثر زمن هو أحسن الأزمنة للجمع والتهذيب، وهو الليل، فقد قالوا: إذا عَنَّ لك أو اقْتُرِحَ عليك إنشاء موضوع، فأنت منوط إذا بأمرين: التفكر أولاً، والكتابة ثانياً، فإذا أمعنت الفكر مَليًّا في أجزاء الموضوع بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك، وقلبتها على جميع الأوجه الممكنة فيها، تولد في خيالك لكل جزء عدةَ صور تتفاوت في تأديته كتفاوت صور المنظوم في الحسن والقبح، فبعضها يستميل النفوس بتأثيره في الحواس، وبعضها يوجب نفورها، وبعضها بين بين، فإذا تشخصت الصور في الخيال، تخير العقل منها ماله المكانة الرفيعة في حسن تأدية الغرض المناسب للمقام، فإن كان المقام للتحريض على القتال مثلاً، انْتَخِب الصورة المهيِّجة للإحساس المشجعة للنفس على اقتحام الأخصار، وإن كان المقام مقام فرح وسرور، انْتَخِبْ مايشرح الصدورَ، وتقر به العيون وتروق به الأرواح، ويذهب عنها الحزن والأتراح.

وبعد تشخص الصور وتخير المناسب منها، تعتنى أيها المنشىء بحسن تأليف وترتيب ماتخيرته، بأن تجمع الصور المناسبة التي يرتبط بعضها ببعض بدون تكلف بحيث يكون المجموع منسجماً يمضي وحده مع النفس بدون علاج وتعب في فهم الغرض منه، وحينئذ يمكنك اظهار هذه الصورة المعقولة في صورة محسوسة بواسطة القلم.

ثم نقح وهذب ماتخيرته؛ بتغيير مايجب تغييره، وحذف ما ينبغي حذفه، واصلاح ما ينبغي إصلاحه، وتحرير مايَدِقّ من معانيه، وطرح مايتجافي عن مضاجع الرقة من غليظ ألفاظه؛ لتشرق شموس التهذيب في سماء بلاغته، وترشُف الأسماع على الطرب رقيق سلافته، فإن الكلام إذا كان موصوفاً بالمهذب منعوتاً بالمنقح، علت رتبته وإن كانت معانيه غير مبتكرة.

وكل كلام قيل فيه لو كان في موضع هذه الكلمة غيرها، ولو تقدم هذا المتأخر، أو تأخر هذا المتقدم، أو لو تمم هذا النقص بكذا، أو لو حذفت هذه اللفظة، أو لو اتضح هذا المقصد وسهل هذا المطلب، لكان الكلام أحسن والمعنى أبين، كان ذلك الكلام غير منتظم في سلك التهذيب.

وأحسن وقت للجمع والتهذيب هو الليل، ومأأحسن ما أشار أبوتمام إلى التهذيب بقوله:

خُذهَا ابْنَةَ الْفِكْرِ المُهَذَّب فِي الدُّجَى
وَاللَّيْلُ أَسْودُ رُقْعَةِ الْجِلْبَابِ

فإنه خص تهذيب الفكر بالدجى لكون الليل تهدأ فيه الأصوات وتسكن الحركات، فيكون الفكر فيه مجتمعاً ومرآة التهذيب فيه صقيلة، لخلو الخاطر وصُفاء القريحة، لا سيما وسط الليل.

قال أبو عبادة البحتري: كنت في حداثتي أروى الشعر ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذ، حتى قصدت أبا تمام وانقطعت إليه واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ماقال لي: أيا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أو تنقيحه، أن يختار

وقت السحر، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عليها ثقل الغذاء، وأحذر المجهول من المعاني، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الوحشية، وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام.

وإذا عارضك الضجر فارح نفسك، ولا تعمل إلاّ وأنت فارغ القلب، ولا تنظم إلا بشهوة، فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم، واعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، ومااستقبحوه فاجتنبه. انتهى من خزانة الأدب وزهر الآداب باختصار.[1]

ولما فرغت من بيان الوقت المختار للجمع والتهذيب، شرعت في بيان العمل الذي يكون للتدريب فقلت:

وَعَمَلٌ يَكُونُ لِلتَّدْرِيبِ

أي وللنثر والشعر عمل يكون للتدريب، بمعنى التدرب، كالتغيير بمعنى التغير، فهو من إطلاق المصدر، وإرادة المعنى الحاصل بالمصدر على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته التعلق الاشتقاقي.

ثم كيف تعمل إذا أردت أن تكون كاتباً؟.

والجواب: إذا أردت أن تكون كاتباً فعليك بملازمة إحدى الطريقين المتقدمتين، إما طريق حل الشعر، أو طريق الإطلاع

(1) نقلته عن جواهر الأدب جـ 1 ص 27 ـ 28.

والحفظ، ثم بـالارتياض وهـو التدرب بـوجوه الإنشـاء بأن تتـوسع في شرح بعض المعاني، فتبينه بأوجه شتى، وتنمقه بأشكال البديع، وبأن تجتهد في وضع بعض مـواضيع وجيـزة، فتصوغ تـارة وصف مدينـة، وتارة مدحاً أو تهنيئة، وأخرى تسرد مثلاً أو تسبك رواية، أو غير ذلك، ولابـد أن تحذو حـذو المتقـدمين في أوضـاعهم بـاستعمـال ألفـاظهم ومعانيهم، وأن تحل النظم، فتأتي به نثراً أنيقاً، وتعقد النثر، فتصوغـه صـوغاً رشيقـاً، فـإنـك إذا أدمنت ذلـك حتى صـارت لـك ملكـة في الإنشاء، تكون كـاتباً، وهـذا شيء خبرنـاه بالتجـربة، ولا ينبئـك مثل خبير.

ثم قلت: كيف تعمل إذا أردت أن تكون خطيباً؟

والجـواب: إذا أردت أن تكون خـطيباً مـرتجـلاً ففكـر أولاً في الموضوع الذي تريـد الخطابـة فيه، ورتبـه في نفسك عنـاصر، وفكـر كيف تبـدأ الكلام فيـه بمقدمـة قصيرة، ثم تـأخـذ في الـدخـول على مـوضوعـك حسب تـرتيب عنـاصـره في نفسـك، ثم فكـر كيف تختم خطبتك موجزاً في الختام ماتوسعت في بيانه.

وبعد التفكير في كل هذا حـاول أن تمرّن لسـانك على تكـوين جمل منسقة، تؤدى معنى مافكرت فيه، وقم خطيباً في مكان منعـزل، وتخيـل أنك تخـاطب جموعـاً حـاشـدة تصغى إلى خـطابـك، وابـدأ بالكلام متمهلاً، مقسماً خطابك إلى عبارات في أساليب جزلة سهلة، وكـرر هذا العمـل عدة مـرات في الموضـوع الواحـد، وأنت تخـطب لنفسك، وفي كل مرة ستجد أنك أحسن من سابقتهـا، وستغير جمـلاً بجمل، وعبارات بأخرى، ويطول نفسك بعد قصر، وتكثـر في ذهنك الألفاظ والمعاني في موضوع خطابك، ويتسـع أفق تفكيرك فيـه وتزاد

ثقتك بنفسك، فحاول بعد التكرار ـ كما بينت لك ـ أن تلقى هذا الموضوع على عدد قليل من الناس، ثم على عدد أكبر؛ وأفعل ذلك أولاً وثانياً وثالثاً، وتصنّع الشجاعة ورباطة الجأش، فستجد نفسك بعد زمن قصير أو طويل خطيباً ممتازاً، يخطب في كل مايريد، ويأسر عواطف الجماهير بسحر بيانه وفصاحة لسانه.

ومن تصفح كتب الأدب وجد كثيراً من مشاهير خطباء العرب سلكوا هذا المسلك، فكانوا يخرجون إلى الفضاء حيث لا يراهم أحد، ويرفعون أصواتهم بما يريدون إلقاءه على الناس، ويكررون ذلك حتى نمت فيهم ملكة الخطابة، وصاروا من الخطباء الممتازين.

ثم كيف تعمل إذا أردت أن تكون شاعراً؟

الجواب: أن للشعر وإحكام صناعته شروطاً: أولها: الحفظ له من جنسه، أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة يكون بها النسج والاختيار للحر النقي الكثير الأساليب من المحفوظ، وهذا المحفوظ أقل مايكفي فيه شعر شاعر من فحول شعراء الإسلام مثل: ابن أبي ربيعة، وذي الرمة، وجرير، والأخطل، وأبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، والشريف الرضي، وأبي فراس، والمتنبي، ثم لا بد من الخلوة، واستجادة المكان المنظوم فيه باشتماله على مثل: المياه والأزهار، وكذا استجادة المسموع لاستنارة القريحة واستجماعها وتنشيطها بملاذّ السرور، ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام أي راحة ونشاط فذلك أجمع له، وأنشط للقريحة أن يأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه، قالوا: وخير الأوقات لذلك أوقات البُكَر عند الهبوب من النوم، وفراغ المعدة، ونشاط الفكر، وربما يكون من دواعيه العشق.

وقالوا أيضاً: إن صعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر، ولا يكره نفسه عليه، وليكن بناء القصيدة على القافية من أول صوغها عند نسج البيت الأول منها، فيضعها ويبني الكلام عليها إلى آخره؛ لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية. صعب وضعها في محلها، وربما تجيء نافرة قلقة، وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي بعده فليتركه إلى موضعه الأليق به، فإن كل بيت مستقل بنفسه، ولم تبق إلاّ المناسبة فليتخير فيها كما يشاء.

وليراجع شعره بعد الفراغ منه بالتنقيح والنقد، ولا يبخل به عن الترك إذا لم يبلغ الإجادة، فإن الإنسان مفتون بشعره، إذ هو بنات فكره واختراع قريحته، ولا يستعمل فيه إلاّ الكلام الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة، وقد حظر أئمة اللسان على المولّد ارتكاب الضرورة، إذ هو في سعة منها، بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى بما عنده من الملكة، ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده، بحيث تكون ألفاظه على طبق معانيه يتسابق كل منها إلى الفهم، ويجتنب أيضاً الحشويَّ من الألفاظ، وكذلك السوقيّ المبتذل، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً، ويصير مبتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة.[1]

وفي هذا القدر كفاية لمتعاطي صناعة الإنشاء، انتهى من ابن خلدون باختصار وتصرف.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 574 ـ 575.

خاتمة في فنون الإنشاء

فُنُونُهُ سَبْعٌ مُكَاتَبَاتُ
وَصْفٌ وَأَمْثَالٌ مُنَاظَرَاتُ
ثُمَّ مَقَامَةٌ مَعَ الرِّوَايَهْ
كَذَلِكَ التَّارِيخُ بِالدِّرَايَهْ
فَهَذِهِ الْفُنُونُ أَنْوَاعٌ لَهْ
خُذْهَا وَأَعْطِ كُلَّ فَنٍّ حَقَّهِ

لما فرغت من بيان أصول الإنشاء وشروطه ومحاسنه وعيوبه وطباقته وأقسامه وطرقه الموصلة إليه والكيفية التي يحصل بها التدرب عليه، تعرضت في هذه الخاتمة لبيان فنونه فقلت: (فنونه) أي الإنشاء (سبع) بحذف التاء لضرورة الوزن.

أولها: (مكاتبات) أي فن المكاتبة، ويعرف أيضاً بالمراسلة، وهي مخاطبة الغائب بلسان القلم. وفوائدها كثيرة لا تحصر، لأنها ترجمان الجنان، ونائب الغائب في قضاء أو طاره، ورباط الوداد مع تباعد البلاد، وتكون نظماً ونثراً، وقد أفردها بعضهم بالتأليف.

وثانيها: (وصف) أي فن الوصف، وهو عبارة عن بيان الأمر باستعاب أحواله وضروب نعوته الممثلة له. وأنواعه كثيرة، ولكنها

ترجع إلى قسمين: وهما: وصف الأشياء، ووصف الأشخاص، ويكون أيضاً نظماً ونثراً.

وثالثها: (أمثال) أي فن الأمثال، وهو فن مشهور فلا نطيل بذكره.

ورابعها: (مناظرات) أي فن المناظرات، ومنه منظارة فصول العام الأربعة لابن حبيب الحلبي، وهي موجودة في كتاب نسيم الصبا، وفي جواهر الأدب أيضاً.

وخامسها: (مقامة) أي فن المقامات، ومنه مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان الهمذاني، وماأشبه ذلك.

وسادسها: (الرواية) أي فن الرواية، ومنه رواية ليلى الأخيلية مع الحجاج، ورواية المرأة التي لا تتكلم إلاّ بالقرآن.

وسابعها: (التاريخ بالدراية) أي فن التاريخ بجميع أنواعه وأشكاله.

(فهذه الفنون) التي تقدم ذكرها (أنواع له) أي لفن الإنشاء فـ (ـخذها) منى مبينة بأسمائها (وأعط كل فن حقه) الذي يختص به عن بقية الفنون من المميزات التي لا يشاركه فيها غيره.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَمَامِهِ
ثُمَّ صَلاَةُ اللَّهِ مَعْ سَلاَمِهِ
عَلَى النَّبِي مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
وَصَحْبِهِ وَتَابِعِي مِنْوَالِهِ

أتيت في هذين البيتين بحمد الله تعالى على تمام هذا التأليف؛ لأنه هو الذي أعاننا على إتمامه، وأتيت بالصلاة والسلام على سيد

الأنام، لأنه هو الواسطة العظمى في إيجادنا وإيجاد هذا التـأليف أيضاً حتى برز لحيز الوجود.

جعله الله خالصاً لوجهه الكـريم، ونفع بـه كما نفـع بأصله إنـه جواد كريم، كـان الفراغ منـه عشية يـوم الجمعة 5٪ ذي القعـدة سنة 1398 هـ الموافق 6 أكتوبر سنة 1978م بيد مؤلفه محمد مفتاح قريو.

وعدد أبيات هذا النظم أربعة وأربعون بيتاً لا غير.

قال الناظم:

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

نَـحْـمَـدُ رَبَّـنَـا الَّـذِي أنـشَـأنَـا
وَلِـلْعُـلُومِ بِـالْـحِـجَـا أَهَّـلَـنَـا
وَجَـعَـلَ الـلِّسَـانَ عُـنْـوَانًـا عَـلَى
مَـا فِـي الْفُـؤَادِ مِنْ كَـلَامٍ حَـصَـلَا
وَخَـصَّـنَـا بِـبَـعْـثِ خَـيْـرِ رُسْـلِهِ
صَـلَّى عَـلَيْـهِ رَبُّـنَـا وَآلِـهِ
وَبَـعْـدُ فَـالْإِنْـشَـاءُ رُوحُ الْأَدَبِ
وَسَـيِّـدٌ عَـلَى عُـلُومِ الْـعَـرَبِ
لِـذَاكَ يُـدْعَـى بِـأَمِـيـرِ الْـعِـلْمِ
وَعِـلْمِ حُـكَّـامٍ وَأَهْـلِ الْـفَـهْـمِ
وَمَـعَ ذَاكَ لَـمْ أَجِـدْ مَـنْ كَـتَـبَـا
فِـيـهِ كِـتَـابـاً جَـامِـعـاً مُـهَـذَّبـاً

لِأَجْلِ ذا جَمَعْتُ ما تَفَرَّقَا

فِي كُتْبِهِ مِمَّا بِهِ تَعَلَّقَا

وَبَعْدَ أَنْ نَقَّحْتُهُ بِفَهْمِي

قَرَّبْتُ حِفْظَهُ بِهَذا النَّظْمِ

سَمَّيْتُهُ بِسُلَّمِ الْإِنْشَاءِ

يُرْقَى بِهِ لِلرُّتْبَةِ الْعَلْيَاءِ

وَاللَّهَ أَرْجُو الْوَفْقَ لِلإِتْمَامِ

وَأَنْ يَكُونَ نَافِعَ الْأَنَامِ

مقدمة في بعض مباديء الفن العشرة

إِنْشَاؤُنَا عِلْمٌ مُوَصِّلٌ إِلَى

كَيْفِيَّةِ التَّعْبِيرِ عَنْ مَعْنًى جَلا

بِمَا يُعَدُّ حَسَنَ التَّرَكُّبِ

وَالْمفْرَدَاتِ عِنْدَ أَهْلِ الأَدَبِ

مَوْضُوعُهُ نَثْرٌ وَنَظْمٌ لِلْكَلامْ

غَايَتُهُ تَحْسِينُ مَامِنْهُ يُرَامْ

وَأَخْذُهُ مِنَ الْعُلُومِ كُلِّهَا

إِذْ لاَ غِنًى فِيهِ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا

باب أصول الإنشاء وشروطه

أُصُولُهُ عُرْفًا تُسَمَّى بِالْمَوَادّْ

وَهْيَ ثَلاَثٌ فِي الأَصَحِّ الْمسْتَفَادْ

أَلْفَاظُهُ الْفَصِيحَةُ الْمُسْتَحْسَنَهْ

فِي ذَوْقِ أَهْلِ الأَدَبِ الدَّهَاقِنَهْ

وَأَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ ذَا مُنَاسَبَهْ
فِي الْوَضْعِ لِلْمَعْنَى الَّذِي قَدْ صَاحَبَهْ
إِمَّا لِعُرْفٍ قَدْ جَرَى أو اتِّفَاقْ
مُسْتَحْسَنٍ يَظْهَرُ فيهِ الإنْطِبَاقْ
وَجَوْدَةُ التَّرْكِيبِ بِالْقَوَاعِدِ
لاسِيَّمَا مَعَ اخْتِرَاعٍ زَآئِدِ
وَلَوْ بِاغْرَابٍ لِذِى ابْتِذَالِ
حَتَّى يُفِيدَ طُرْفَةَ الْمَقَالِ
وَهِيَ أَهَمُّ حَيْثُ مِنْهَا يَنْجَلِى
الْفَرْقُ بَيْنَ مُنْشِيءٍ وَجَاهِلِ
وَتُوصِلُ المنْشِىءَ لِلْجِنَاسِ
وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالاقْتِبَاسِ
وَصَنْعَةِ التَّضْمِينِ وَالتَّلْمِيحِ
إذَا أَرَادَ أَدَبَ التَّمْلِيحِ
وَشَرْطُهُ اطِّلاَعُ كُلِّ رَاغِبِ
عَلَى أَسَالِيبِ رِجَالِ الأدَبِ
وَخَلْوَةٌ فِي نَزْهَةٍ لِلْفِكْرِ
كَذَا هُدُوءُ الْجَوِّ فَافْهَمْ وَادْرِ
وَصَوْغُهُ فِي زَمَنِ النَّشَاطِ
عِنْدَ فَرَاغِ الْفِكْرِ وَانبِسَاطِ
وَأَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ فِيهِ تَابِعَا
إلَى الْمَعَانِى دُونَ عَكْسٍ فَاسْمَعَا
وَذَا انْقِيَادٍ لِلْمَعَانِى دُونَمَا
عَسْفٍ وَإِكْرَاهٍ عَلَيْهَا دَائِمَا

كَذَا التَّدَرُّبُ عَلَيْهِ حَتَّى
يَكُونَ مِثْلَ الطَّبْعِ فِيهِ بَتَّا

باب محاسن الإنشاء وعيوبه

مَحَاسِنُ الإنْشَآءِ قُلْ وُضُوحُ
صَرَاحَةُ جَزَالَةُ تَنْقِيحُ
تَطَابُقُ تَنَاسُقُ عَلَى الدَّوَامْ
كَذَا سُهُولَةُ لَهُ والإِنْسِجَامْ
تَأَنُّقُ فِي الْبَدْءِ بِالْمَقَالِ
الْعَذْبِ أَوْ بَرَاعَةِ اسْتِهْلَالِ
مَعَ اجْتِنَابِ كُلِّ مَايُطَيِّرُ
وَكُلِّ مَا يَقْبُحُ أَوْ يُنَفِّرُ
كَذَا تَأَنُّقُ لَدَى الْخِتَامِ
مَعْ ذِكْرِ مَايُشْعِرُ بِالتَّمَامِ
عُيُوبُهُ تَنَافُرُ وَخَشْيَةْ
وَهُجْنَةُ سَهْوُ عَنِ الْمَرْضِيَّهْ
جَفَافُ الإِسْهَابُ وَحْدَةُ السِّيَاقْ
رِكَّةُ تَعْقِيدُ وَتَكْرَارُ يُرَاقْ

تكملة في طبقاته وأقسامه

وَطَبَقَاتُهُ ثَلَاثُ لأنِقَهْ
سُفْلَى وَوُسْطَى ثُم عُلْيَا فَآنِقَهْ
وَهْوَ إِلَى نَثْرٍ وَشِعْرٍ يَنْقَسِمْ
وَلَهُمَا طُرُقٌ وَسَيْرُ مُنْتَظِمْ

وَزَمَنٌ لِلْجَمْعِ وَالتَّهْذِيبِ
وَعَمَلٌ يَكُونُ لِلتَّدْرِيبِ

خاتمة في فنون الإنشاء

فُنُونُهُ سَبْعٌ مُكَاتَبَاتُ
وَصْفٌ وَأَمْثَالٌ مُنَاظَرَاتُ
ثُمَّ مَقَامَةٌ مَعَ الرِّوَايَهْ
كَذَلِكَ التَّارِيخُ بِالدِّرَايَهْ
فَهَذِهِ الْفُنُونُ أَنْوَاعٌ لَهُ
خُذْهَا وَأَعْطِ كُلَّ فَنٍّ حَقَّهُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَمَامِهِ
ثُمَّ صَلاَةُ اللَّهِ مَعْ سَلاَمِهِ
عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
وَصَحْبِهِ وَتَابِعِي مِنْوَالِهِ

ولإتمام الفائدة بالتطبيق العملي ذيلت سلم الإنشاء بخطبتين، وقصيدتين.

أولى الخطبتين منبرية للترغيب في قراءة القرآن والعلوم الدينية وهي هذه:

الحمد لله الذي أنزل القرآن من فيض رحمته، وجعله هُدى للسالكين إلى باب حضرته، ونوراً للأرواح تسبح في سبحات بهجته، وربيعًا للقلوب تسرح في أزهار روضته، وشفاءً للصدور تشتفى بحكمته، وزمامًا للفكر في تفكيره وجولته، وقيادًا للعقل في جمحته وصولته، ودستورًا للحاكم في حكومته، ونظامًا للمحكوم في سيرته

ومهنته، وحياة لأرواح العالم برمته.

أحمدُه حَمد من أقر بالعجز عن شُكر نعمته، وأعترف بـالتقصير عن القيام بواجب عبوديته، وأصلي وأسلم على صفوة خليقته، وجمال الكـون وبهجتـه، وتـرجمـان الحق وخليفتـه، ورسـولـه إلى العـالمين بكلمته، محمد نور الوجود وخيرته، وعلى آله وأصحابه وعترته.

أمـا بعد: فـلا يخفى على مسلم من أي طبقة كـان، أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على رسـوله ـ ﷺ ـ نـورًا وهدًى لخيـر أمةٍ أخرجت للنـاس، وهي الأمة الإسـلامية التي جمعت في شـريعتها بين الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وأنَّ هذه الأمة قبـل أن يجيئها هذا الكتاب الكـريم، كانت قبـائل مشتتـةً لا تجمعهم صلة دينية، ولا أخلاق اجتماعية، ولا مصلحة اقتصادية، ولا تضمهم رابطة سياسيـة، شغلهم الحـروب والغارات، ودَيْـدَنُهُمْ توارث العـداوات، وهـو شـأن كانت عليه من عهد تكونهـا إلى أن بعث الله إليها نبيَّهُ مُحمداً ـ ﷺ ـ فلم تتغيـر عنـه في قـرن من القـرون، ولم تتحـول عنـه في جيـل من الأجيال، وقد أنـزل عليه القـرآن لنفع هـذه الأمة، فلم تلبث إلاّ سنين قلائل حتى نهضت نهضـة الأسد تتـلألأ حياةً ونـورًا، وتتجلى أخلاقًـا وشعـوراً، ثم جالت في العـالم جولـة القوي العـادل، وصالت صـولة القـادر العاقـل، وإذا بهـا أمـة الأمم، وصـاحبـة العلم، وربـة السيف والقلم، وكاشفة الغمـوم والغمم، وجاليـة الظُلْم والـظُلَم، بل محييـة الرمم، بأي شيء حصل هذا التغيـر الفجائي الـذي أدهش العالمين، وبهر الناس أجمعين، بمحمـد ـ ﷺ ـ الذي أوحى إليـه هذا القـرآن، فجعله دستـوراً لنفسه وأمتـه، وإمامًـا لأموره وأمـور رعيته، حتى كـان ماكان، مما لو أحفينا فيه الأقلام، وأجهدنـا فيه الإفهـام، لعجزنـا عن

وصف بعضه فما بالك بكله.

هذه الأمة التي عرفت مبدأها، ووقفت على كنه خلافتها في الأرض والتي لم يزل تاريخها إلى اليوم زهرة التواريخ وزينة المكاتب، وآثارها في القلوب والعيون أكبر الآثار وأعظم المشاهد، حييت بالقرآن وتحركت، وبه أبصرت وأدركت، وبه تهذبت وتخلقت، وبه التأمت واجتمعت، وبه تضافرت وتساعدت، وبه صَلّت وزكت، وبه صامت واعتكفت، وبه حاربت وسالمت، وبه عاهدت وناقضت، وبه بحثت وتعلمت، وبه دوّنت وألفت، وبه هدمت وبنت، بل به ترقت وتمدنت، حتى بلغت مابلغت.

ولذلك تعلم أن القرآن روح الأمة وحياتها، وبه وجودها وقوامها، فكيف تفلح بدونه وتنهض من كبوتها بشيء سواه، فهو كتابٌ إلهي، ووحيٌ سماويٌ، نزل به الروح الأمين، على قلب خاتم النبيئين وإمام المرسلين، ليحيي به قلوبًا أماتتها الشهوات، وينقذ به من الحيرة عقولاً سممتها الشكوك والشبهات، ويحل به من الأغلال أفكارًا قيدتها الخرافات، وسجنتها التخرصات، ويسترد به للنفوس حقوقًا اغتصبها القادات، وسلبها السادات، ويُقيم به دولة الكمالات، وصروح المكرمات، ويهدم به عروشًا أقامها الأقوياء عَلى أشلاء الضعفاء، ويجدع به أنوفًا شمخت بها الجاهلية الجهلاء وأبطرتها النعماء، ويفتح به للمدارك أبوابًا سدهَا الكهان، ويكشف به للأذهان حقائق العلم وطرائق العرفان، كما شهد بذلك أعداء القُرآن، بل وأعداء الأديان، حتى هاجمون من أجله، وحاربون لنبذه وخلعه، لأنهم عرفوا أنه سلاحٌ متينٌ لهذه الأمة، ونورٌ مبينٌ يكشف عنها كل ظلامٍ وغمةٍ.

وحينئذ فكيف لا نوجه لهذا القرآن أفكارنا، ونعلمه لجميع أبنائنا، ونخصص له جل أوقاتنا، ونصرف في تحصيله أموالنا، لنظفر بحفظ ألفاظه وفهم معانيه، وليسهل علينا العمل بما يطلبه ومايقتضيه، لنكون على بينةٍ من أمرنا، ولنسير على هدى خالقنا، الذي أنزل إلينا الكتاب، وبين لنا فيه طرق الصواب، وجعله سلاحًا لنا نحارب به أعداءنا، وحجةً لنا على كل من خالفنا.

فيا أيها المؤمنون جددوا به أفكاركم، ووجهوا لقراءته أبناءكم، وأتوا بهم إلى المدارس القرآنية، وعلِّموهم العلوم الشرعية في المعاهد الدينية، ليسلكوا الطريق الصحيحة المرضية، فقد كفى ماكان من المعلومات المشوهة، التي جرها إلينا سلوك الطرق الزائفة المموهة، حتى نشأ فينا الشذاذ المستغربون، الذين يزعمون أنهم على شيء **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ، اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[1] وكل من لم يسلك طريق السلامة، لابد في وقت من الأوقات أن يقع في الندامة، وأن تأتيه على طول الزمان ثورة عارمة قوية، دينية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، تجرفه بقوة التيار، حتى ترميه في جوف البحار.

والثانية: **خطبة نكاح تشتمل على الترغيب فيه وبيان أركانه:** وهي هذه:

الحمد لله الذي أباح النكاح، وحرم البغي والسفاح، وخلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهراً، ورغب فيه في كتابه العزيز وأمر به

---

(1) سورة المجادلة، الآيتان: 18، 19.

أمراً، فقال تعالى في الآية الكريمة الواردة، ﴿فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلَاثَ وَرُبَاعَ فإن خِفْتُمْ ألَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1]، ووعد بالغنى من أخذ في أسبابه بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ الله مِنْ فَضْلِهِ﴾[2]، وَحَبَّبَهُ لنبيِّه - ﷺ - المبعوث من تهامه، حتى قال: «تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة»[3]، وقال أيضاً: «حبب إلى من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»[4]، رواه ابن عساكر عن ابن عمر عن خير خلق الله، وبين أركانه في نكاح آدم - عليه السلام - فأنزل عند ذلك الملائكة الكرام، وقالوا له - لما دنى من حواء -: مه ياآدم حتى تؤدي لها مهراً، فقال: ومامهرها فقالوا: أن تصلي على خاتم النبيين وإمام المرسلين وأشرفهم قدرًا، فأدى ذلك المهر إليها، وتوكل إسرافيل عليها، وخطب الأمين جبريل - عليه السلام - وقبل الزوج لنفسه بالصيغة الصريحة عند التمام، وبعد... إلخ.

والقصيدتان أولاهما في وصايا الشعر لعشاقه:

تَقَرَّبْتُ لِلشِّعْرِ وَحَاوَلْتُ نَظْمَهُ

فَأَبْعَدَنِي عَنْهُ وَعَاتَبَنِي جَهْرَا

---

(1) سورة النساء، الآية: 3.

(2) سورة النور، الآية: 32.

(3)

(4) ورواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي. حديث حسن (مختصر شرح الجامع الصغير) جـ 1 ص 250.

فَـأَيْقَنْتَ أَنِّي لَسْتُ أُحْسِنُ صَوْغَهُ
بِغَيْـرِ العَـرُوضِ وَالقَـوَافِي التِي تُقْـرَا
فَمِـارَسْتُ كُـلاًّ مِنْهُمَـا بِعِنَـايَةٍ
وَبَحْثٍ لَـهُ اعْـطَيْتُ مِنْ وَقْتِنَـا دَهْـرَا
وَلاَزَمْـتُ أَشْعَـارَ الـفُحُـولِ قِـرَاءَةً
وَحِفْـظًا لِكَيْ تَبْقَى لِحَـاجَتِنَـا ذُخْـرَا

* * *

إِلَـى أَنْ أَتَى عَـفْـوًا بِـغَـيْـرِ تَـكَـلُّفٍ
وَقَـالَ لِيَ انْـطِقْ بِي وَلاَتَـرْتَكِبْ عُسْـرَا
وَجَـانِـبْ غَـرِيبَ الـلَّفْظِ ثُمَّ رَذِيـلَهُ
وَخُـذْ وَاضِحًـا مُسْتَحْسَنَ الـذَّوْقِ لِلْقُـرَّا
وَرَكِّبْ تَـرَاكِيـبَ العَـرُوضِيِّ دَائِمَـا
بِـجَـوْدَةِ تَـعْـبِيـرٍ وَوَزْنٍ خَـلاَ ذِكْـرَا
وَحَـاذِرْ مِنَ التَّعْقِيـدِ وَالحَشْـوِ مُـطْلَقَـا
وَمِمَّـا يُعَـابُ فِي القَـوَافِي التِي تَتْـرَا
تَـكُنْ عِـنْـدَ ذَا مِجْـوَادَ شِـعْـرٍ يَـرُومُـهُ
مِـنَ الأُدَبَـاءِ ذَوْقُ مَـنْ يَـعْـرِفُ الـقَـدْرَا

* * *

وَإِنْ تَـتَـأَنَّقْ فِـى تَـرَاكِـيـبِ لَـفْـظِه
بِـنَـوْعٍ مِنَ الإِبْـدَاعِ فِيـهَـا يَـكُـنْ دُرًّا
وَيَسْحَـرْ عُقُـولَ السَّامِعِينَ بِـأَسْـرِهِمْ
وَيَسْبِي الـذِي قَـدْ كَـانَ مِنْ قَبْلِهِ حُـرًّا

وَتَــظْهَــرُ فِي هَــذَا المَقَــامِ الفَصَــاحَــةُ
فَــأَفْصَحُ أَهْــلِ الشِّعْرِ أَحْسَنُهُمْ شِعْــرَا
«وَذَلِــكَ فَــضْــلُ الله يُؤْتِيــهِ مَنْ يَشَــا»
فَمَنْ نَــالَــهُ يُصْبِــحْ لَــدَى عَصْــرِهِ بَــدْرَا
عَلَيْــكَ بِمَا قَــدْ قَالَــهُ الشِّعْرُهَــا هُنَــا
فَــتِــلْكَ وَصَــايَــاهُ لِــعُــشَّــاقِــهِ طُــرًّا
أَتَيْتُ بِــهَــا لِــلرَّاغِــبِيــنَ لَــدَى الأَدَبْ
لِيُعْــطُوا إِلَى الأَشْعَــارِ مِنْ حَــظِّهَــا قَــدْرَا
فَفِي الشِّعْــرِ تَبْــدُو الحِكْمَــةُ الفَلْسَفِيَّــةُ
إِذَا زَانَ أَلْفَــاظًــا وَسَبْكًــا حَــوَى سِــرًّا

تمــت

وعددها ستة عشر بيتاً

والثانية في دواعي الشعر ووسائله وكيفية صوغه:

دَعَــانِي لِنَظْمِ الشِّعْــرِ تَنْزِيــهُ خَــاطِــرِي
وَقَــصْــدُ التَّسَلِّي عَــنْ وُرُودِ الْخَــوَاطِــرِ
وَمَــيْلِي لِــمَنْــظُومِ الْــكَــلَامِ سَجِــيَّــةً
وَتَجْــرِيبُ فِكْــرِي فِي اقْتِنَــاصِ الْجَــوَاهِــرِ
فَــمَــارَسْــتُ أَشْــعَــارَ الْــبُــصَيْــرِيِّ أَوَّلًا
وَأَشْعَــارَ نَجْــلِ الْفَــارِضِ الْمُــتَــوَاتِــرِ
وَصِــرْتُ بِــأَشْعَــارِ الحَرِيــرِيِّ مُغْــرَمَــا
وَمَــاقَــدْ بَــدَا مِنْ عَنْتَــرٍ فِي المَفَــاخِــرِ
وَمَــاقَــالَــهُ الْــبَــهَــا زُهَــيْــرٌ وَمَــا أَتَــى
بِــهِ المُتَنَبِّي فِي جَمِيــعِ الــمَحَــاضِــرِ

وَهِمْتُ بِشِعْرِ الشَّارِفِ المتَفَلْسِفِ
لَدَى شِعْرِهِ فِي رَأْيِ أَهْلِ الْبَصَائِرِ
كَذَاكَ بِشِعْرِ المِهْدَوِي المتَمَيِّزِ
بِأَحْسَنِ صَوْغٍ لِلْكَلَامِ المُعَاصِرِ

* * *

فَمِنْ شِعْرِهِمْ قَدْ تَمَّ تَدْرِيبُ خَاطِرِي
وَطَالَبَ مِني نَظْمَ جَيْشِ العَسَاكِرِ
فَقُلْتُ أَرِحْنِي قَالَ هَيْهَاتَ قَبْلَ أَنْ
تُنَظِّمَ جَيْشًا مِنْ نِتَاجِ الخَوَاطِرِ
فَقُلْتُ لَهُ ذَا يَبْتَغِي الصَّبْرَ قَالَ لِي
هَلِ انْقَادَتِ الآمَالُ إلاَّ لِصَابِرِ

* * *

لِذَاكَ أَخَذْتُ مِنْ حَقِيبَةِ حِفْظِنَا
كَرَائِمَ أَلْفَاظٍ رَسَتْ فِي الذَّخَائِرِ
وَوَازَنْتُهَا عَلَى فَعُولُنْ مَفَاعِلُنْ
وَأَبْدَلْتُ مَاجَافَى بِخَيْرِ الْعَنَاصِرِ
وَفِيهَا تَصَرَّفْتُ بِحُسْنِ صِيَاغَةٍ
وَتَضْمِينِ مَعْنًى مِنْ قَبِيلِ النَّوَادِرِ
وَتَصْبِيرِ مَالَيْسَ غَرِيبًا كَأَنَّهُ
غَرِيبٌ بِتَرْكِيبٍ عَجِيبٍ وَسَاحِرِ
إِلَى أَنْ غَدَتْ شِعْرًا بِوَزْنٍ مُنَظَّمٍ
وَقَافِيَةٍ جَاءَتْ مِنَ المُتَوَاتِرِ

وَصِـرْتُ أَقُـولُ الشِّعْـرَ دُونَ تَـكَلُّفٍ
وَإِنْ كُنْتُ عِنْـدَ النَّـاسِ لَسْتُ بِشَـاعِـرِ
لِأَنِّـي مَـا أَعْـطَيْـتُـهُ كُـلَّ فِـكْـرَتِـي
وَلَا صِـرْتُ مُهْتَمًّـا بِـهِ فِي المَحَـاضِـرِ
وَلَـكِـنَّـهُ قَـدْ جَـاءَ عَـفْـوًا كَـمَـا أَتَـى
بِـمَـوْهِبَـةٍ لِلشَّـافِعِي ذِي البَـصَـائِـرِ

تمت

وعددها: ثمانية عشر بيتاً

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ أدب الدين والدنيا ـ لأبي الحسن الماوردي ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة.

3 ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ـ للشيخ منصور علي ناصف ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

4 ـ رياض الصالحين ـ للإمام أبي زكريا يحيى النووي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

5 ـ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء العرب ـ للسيد أحمد لهاشمي ـ مطبعة حجازي ـ القاهرة.

6 ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ـ للسيد أحمد الهاشمي ـ دار إحياء التراث العربي.

7 ـ ديوان المتنبي بشرح العكبري ـ دار المعرفة ـ بيروت.

8 ـ ديوان امرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف.

9 ـ شرح الأرجوزة المسماة بعقود الجمان في علم المعاني والبيان للإمام جلال الدين السيوطي ـ بدون مكان وتاريخ الطبع.

10 ـ وبهامشه شرح الجوهر المكنون لأحمد الدمنهوري.

11 ـ شرح السعد المسمى مختصر المعاني ـ للعلامة سعد الدين التفتازاني ـ تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مطبعة علي صبيح وأولاده.

12 ـ شرح عقد اللآلي في علم الوضع ـ للعلامة عبد الملك بن عبد الوهاب الفتني ـ المطبعة الشرقية.

13 ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ للعلامة المناوي.

14 ـ القاموس المحيط ـ للفيروز آبادي.

15 ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ لضياء الدين بن الأثير ـ دار النهضة ـ مصر.

16 ـ مختار الصحاح للإمام محمد الرازي طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب.

17 ـ مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي ـ لمصطفى محمد عمارة ـ دار إحياء الكتب العربية.

18 ـ المصباح المنير للفيومي.

19 ـ مقامات الحريري ـ للعلامة أبو محمد القاسم بن محمد الحريري البصري ـ المكتبة الشعبية ـ بيروت.

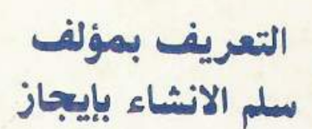
20 ـ مقدمة بن خلدون ـ للعلامة ابن خلدون ـ دار الكتاب العربي - بيروت.

21 ـ كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ـ تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط. عيسى البابي الحلبي.

الفهرس







اسمه:

هو محمد بن مفتاح بن محمد قريو، (بكسر القاف والراء المشدَّدة).

تاريخ ومكان ميلاده:

ولد بالتاريخ الهجري قبل فجر يوم الجمعة 26/ جمادى الأول 1332 هـ. الموافق لأواسط مايو 1914م، في مصراتة بالغيران الغربية.



الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة الجماهيرية العظمى